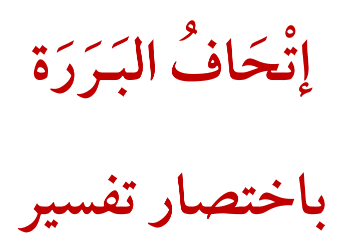

إتْحَـافُ البَـرَرَة
باختصار تفسير
سُورَةُ البَقَرَةِ
تَفْسِيرٌ مُحَرَّرٌ مُتَكَامِل
اختصره من تفسير الإمام ابن كثير
مُحَمَّدُ بنُ سُلَيْمَان المُهَنَّا





تَفْسِيرٌ مُحَرَّرٌ مُتَكَامِل

اختصره من تفسير الإمام ابن كثير

مُحَمَّدُ بنُ سُلَيْمَان المُهَنَّا



مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّنا محمَّد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فهذا تفسير سورة البقرة، اختصرتُهُ من تفسير الإمام ابن كثير، فجاء في ثُلُث الأصل فقط، مع اشتماله علىٰ عامَّة ما في الأصل من المباحث والفوائد.

أدعو إخواني وأخواتي إلىٰ الاستفادة منه، فهو خُلاصةٌ مناسبةٌ للقراءة الفرديَّة والجَمَاعيَّة، كما أدعوهم إلىٰ نشره عبر وسائل النشر المتنوِّعة، وأسأل الله الكريم كما تفضَّل عليَّ بإعداده، أن يُبارك فيه وينفع به.

محمد بن سليمان بن عبد الله المهنا

لإرسال الملحوظات والاقتراحات:

00966505490525

Almohanna.m@gmail.com

@almohannam

ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِيْ فَضْلِ سُوْرَةِ البَقَرَة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(لا تجعلوا بيوتكم قبوراً؛ فإنَّ البيت الذي تُقْرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان)** رواه مسلم(١).

وعن أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله عنه، قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفَرَسُهُ مربوطةٌ عنده إذ جالت الفرس، فسكتَ فسكنتْ فقرأ فجالت الفرس، فسكتَ فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف، وكان ابنه يحيىٰ قريبـًا منها، فأشفق أن تُصيبه، فلمَّا أخذه رفع رأسه إلىٰ السماء حتىٰ ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ فقال: اقرأ يا ابن حُضَيْر، قال: أشفقتُ يا رسول الله علىٰ يحيىٰ، وكان منها قريبـًا، فرفعتُ رأسي وانصرفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلىٰ السماء، فإذا مثل الظُلَّة فيها أمثال المصابيح، فخرجتُ حتىٰ لا أراها. قال ﷺ: وتدري ما ذاك؟ قال: لا. قال: **(تلك الملائكة دَنَتْ لصوتك، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارىٰ منهم)** رواه البخاري(٢).

وقد وقع نحوٌ من هذا لثابت بن قيس بن شمَّاس رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٨).

ذِكْرُ مَا وَرَدَ في فَضْلِها مَعَ سورةِ آلِ عِمْرَان

عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**اقرأوا القرآن فإنه شافعٌ لأصحابه يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غماماتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طيرٍ صواف، يُحاجَّان عن أهلهما**» ثم قال: «**اقرأوا البقرة، فإنَّ أَخْذها بركة، وتَرْكها حسرة، ولا تستطيعها البَطَلَة**» رواه مسلم[1].

الزهراوان: المنيرتان.

والغياية: ما أظلَّكَ مِنْ فوقك.

والفِرْق: القطعة من الشيء.

والصواف: المُصطفَّة المُتضامَّة.

والبَطَلَة: السَحَرَة.

ومعنىٰ (**لا تستطيعها البَطَلَة**): أي لا يُمكنهم حِفْظُها، وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها. والله أعلم.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم**

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، أو ظُلَّتان سوداوان بينهما شَرْق أو كأنهما فِرْقان من طيرٍ صواف يُحاجَّان عن صاحبهما» رواه مسلم[1].

وثبت في الصحيح أنَّ رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعة واحدة[2].

فَصْلٌ

وسورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف؛ وهي من أوائل ما نزل بها[3] لكنَّ قوله تعالىٰ فيها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللهِ..﴾ يُقال: إنه آخر ما نَزَل، وكذلك آيات الربا من أواخر ما نَزَل.

وكان خالد بن معدان يُسمِّي البقرة: فُسْطاط القرآن.

قال بعض العلماء: وهي مشتملة علىٰ ألف خَبَر، وألف أمر، وألف نهي.

قال العادُّون: آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات، وكلماتها: ستة آلاف كلمة ومائة وإحدىٰ وعشرون كلمة، وحروفها: خمسة وعشرون ألفًا وخمسمائة حرف. فالله أعلم.

***

(١) أخرجه مسلم (٨٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧٢).

(٣) أي بالمدينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾

قد اختلف المُفَسِّرون في الحروف المُقَطَّعة التي في أوائل السور؛ فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه، فردُّوا عِلْمها إلىٰ الله، ولم يفسروها. حكاه القرطبي في تفسيره، عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم من فسَّرها؛ واختلف هؤلاء في معناها:

فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء السور. قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونَقَل عن سيبويه أنه نصَّ عليه.

وقال مجاهد: (الم وحم والمص) فواتح افتتح الله بها القرآن.

وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم، استُغْنىٰ بذِكْر ما ذُكِر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفًا.

قلت: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهي ا ل م ص ر ك هـ ي م ط س ح ق ن يجمعها قولك:

(نص حكيم قاطع له سر) وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك؛ وبيان ذلك من صناعة التصريف.

قال الزمخشري: (وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة علىٰ أنصاف أجناس الحروف؛ يعني: من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المُسْتعليَة والمنخفضة، ومن حروف القلقلة).

وقد سَرَدَها مفصَّلةً ثم قال: (فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته).

ومن هاهنا لخَّصَ بعضهم في هذا المقام كلامًا؛ فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالىٰ عبثًا ولا سدًىٰ، ومن قال من الجَهَلَة: إن في القرآن ما هو تعبُّد لا معنىٰ له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعيَّن أن لها معنىً في نفس الأمر؛ فإن صحَّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقَفْنا حيث وقَفْنا وقُلْنا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ولم يُجْمِع العلماء فيها علىٰ شيء معين؛ وإنما اختلفوا؛ فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتىٰ يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر: ما الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور؟

قال بعضهم: إنما ذُكِرتْ ليُعرف بها أوائل السور. حكاه ابن جرير؛

وهذا ضعيف؛ لأن الفَصْلَ حاصلٌ بدونها فيما لم تُذْكر فيه.

وقال آخرون: بل ابتُدئ بها لتُفْتَح لاستماعها أسماعُ المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، حتىٰ إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلَّف منه. حكاه ابن جرير أيضـًا؛ وهو ضعيف أيضـًا؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السور لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك؛ ولو كان كذلك أيضـًا لانبغىٰ الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك.

ثم إن هذه السورة والتي تليها -أعني البقرة وآل عمران- مدنيَّتان ليستا خطابـًا للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه.

وقال آخرون: بل إنما ذُكِرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذُكرت فيها بيانـًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركَّب من هذه الحروف المقطَّعة التي يتخاطبون بها. وقد حكىٰ هذا المذهب فخر الدين الرازي في تفسيره عن المُبرِّد وجمعٍ من المحقِّقين.

وحكىٰ القرطبي عن الفرَّاء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه، ونَصَرَه أتمَّ نصر. وإليه ذهب الشيخُ الإمام العلَّامة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، وشيخُنا الحافظ الجهبذ الإمام أبو الحجاج المِزِّي، وحكاه لي عن أبي العباس ابن تيمية.

قال الزمخشري: «ولم تَرِدْ كلُّها مجموعةً في أول القرآن، وإنما كُرِّرت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت، كما كُرِّرَت قصصٌ كثيرة، وكُرِّر التحدي بالتصريح في أماكن». قال: «وجاء منها علىٰ حرف واحد؛ كقوله: ص، ن، ق. وحرفين، مثل: حم. وثلاثة، مثل: الم. وأربعة، مثل: المر والمص، وخمسة، مثل: كهيعص وحم عسق، لأنَّ أساليب كلامهم علىٰ هذا من الكلمات؛ ما هو علىٰ حرف، وعلىٰ حرفين، وعلىٰ ثلاثة، وعلىٰ أربعة، وعلىٰ خمسة؛ لا أكثر من ذلك».

قلت: ولهذا، كلُّ سورةِ افتُتحتْ بالحروف، فلا بدَّ أن يُذْكر فيها الانتصارُ للقرآن، وبيانُ إعجازه وعظمته؛ وهذا معلوم بالاستقراء؛ وهو الواقع في تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿الم اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْه﴾ ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْه﴾ ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيم﴾ وغير ذلك من الآيات الدالَّة علىٰ صِحَّة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أنعم النظر. والله أعلم.

وأما من زعم أنها دالة علىٰ معرفة المُدَد، وأنه يُسْتخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادَّعىٰ ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف؛ وهو مع ذلك أدلُّ علىٰ بطلان هذا المسلك من التمسك به علىٰ صحته.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾

قال ابن جريج: قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي هذا الكتاب.

وكذا قال مجاهد وعكرمة والسُدِّي: أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنىٰ (هذا) والعرب تُقارِضُ بين هذين الاسمين للإشارة؛ فيستعملون كُلًّا منهما مكان الآخر. وهذا معروفٌ في كلامهم، وقد حكاه البخاري عن أبي عُبيدة معمر بن المثنىٰ.

والكتاب: القرآن، ومن قال: إن المراد التوراة والإنجيل كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد النُجْعَة، وأغرق في النَزْع، وتكلَّف ما لا علم له به.

والرَّيب: الشَّك.

ومعنىٰ الكلام هنا: أن هذا الكتاب (وهو القرآن) لا شك فيه أنه منزَّل من عند الله، كما قال تعالىٰ في سورة السجدة: ﴿الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال بعضهم: هذا خبر، ومعناه النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه.

ومن القُرَّاء من يقف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيْبَ﴾ ويبتدئ بقوله تعالىٰ: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

والأولىٰ الوقف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ للآية التي ذكرناها، ولأنه يصير قوله تعالىٰ: ﴿هُدًى﴾ صفة للقرآن، وذلك أبلغ من كونه فيه هدىٰ.

وقد خُصَّت الهداية للمتَّقين، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيد﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو في نفسه هدىً، ولكن لا يناله إلا الأبرار؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: للمؤمنين الَّذِينَ يَّتقون الشرك بي، ويعملون بطاعتي.

وعن الحسن البصري في قوله تعالىٰ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين اتقوا ما حرَّم الله عليهم، وأدَّوا ما افترض عليهم.

واختيار ابن جرير أن الآية تَعُمُّ ذلك كله؛ وهو كما قال.

ويُطلق الهُدىٰ ويُراد به ما يَقِرُ في القلب من الإيمان؛ وهذا لا يقدر علىٰ خلقه في قلوب العباد إلا الله عزّ وجل. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ وقال: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ وقال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ويُطْلَق ويُرَاد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

وأصل التقوىٰ: التوقِّي مما يكره؛ لأن أصلها: وقىٰ من الوقاية.

قال النابغة:

سقط النَصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ فتناولتْهُ واتَّقتنا باليدِ

وقد قيل: إنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل أُبيَّ بن كعب عن التقوىٰ، فقال له: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلىٰ. قال: فما عملت؟ قال: شَمَّرتُ واجتهدت. قال: فذلك التقوىٰ.

وقد أخذ هذا المعنىٰ ابنُ المعتزِّ؛ فقال:

خـلِّ الـذنـوبَ صـغـيـرَهـا وكـبـيـرَهـا ذاك الـتُـقَـىٰ
واصـنـعْ كـمـاشٍ فـوق أرض الشـوك يَـحْـذَرُ مـا يـرىٰ
لا تـحـقـرنَّ صـغـيـرةً إنَّ الـجـبـال مـن الـحَـصَـىٰ

وأنشد أبو الدرداء:

يـريـد الـمـرءُ أن يـؤتـىٰ مُـنَـاهُ ويـأبـىٰ اللهُ إلا مـا أرادا
يـقـول الـمـرءُ فـائـدتي ومـالـي وتقوىٰ اللهِ أفضـلُ ما اسـتفادا

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾

الإيمان في اللغة: يُطْلَقُ علىٰ التصديق المَحْض، وقد يُسْتعمل في القرآن والمراد به ذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِين﴾ وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِين﴾ وكذلك إذا استُعمل مقرونـًا مع الأعمال؛ كقوله تعالىٰ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فأما إذا استُعمل مطلقًا، فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً.

هذا ما ذهب إليه أكثر الأئمة؛ بل قد حكاه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو عبيد، وغير واحد إجماعـًا: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري؛ ولله الحمد والمِنَّة.

ومنهم من فسَّر الإيمان بالخشية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾.

والخشية: خلاصة الإيمان والعلم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وأما الغيب المراد هاهنا: فقد اختلفت عبارات السلف فيه؛ وكلها صحيحة ترجع إلىٰ أن الجميع مُراد.

فعن أبي العالية قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يؤمنون بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره، ولقائه؛ ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيبٌ كله.

وروىٰ مُرَّة الهمداني، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أنهم قالوا: الغيب ما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار، وما ذُكِرَ في القرآن.

وقال زيد بن أسلم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال: بالقَدَر.

فكل هذه متقاربة في معنىٰ واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي يُقيمون الصلاةَ بفروضها.

وقال: إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود، والتلاوة، والخشوع، والإقبال عليها.

وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة علىٰ مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي زكاة أموالهم.

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات؛ فإنه قال: وأولىٰ التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدِّين، زكاةً كان ذلك، أو نفقةَ من لزمته نفقته من أهل وعيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته؛ لأن الله تعالىٰ عمَّ وصفهم، ومدحهم بذلك. وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوحٌ به محمودٌ عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالىٰ بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة علىٰ توحيده، والثناء عليه، وتمجيده والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه. **والإنفاق**: هو من الإحسان إلىٰ المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولىٰ الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب؛ فكلٌّ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخلٌ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

ولهذا ثبت في الصحيحين[1]، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (**بُني الإسلام علىٰ خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**) والأحاديث في هذا كثيرة.

وأصل الصلاة في كلام العرب: الدعاء؛ قال الأعشىٰ:

لها حارسٌ لا يبرح الدهرَ بيتَها وإن ذُبحت صلَّىٰ عليها وزمزما

أنشده ابن جرير مستشهداً علىٰ ذلك.

وقال الآخر، وهو الأعشىٰ أيضـًا:

تقول بنتي وقد قرَّبتُ مرتحلاً يا ربِّ جنِّبْ أبي الأوصاب والوجعا

عليكِ مثلُ الذي صليتِ فاغتمضي نومـًا فإن لجنب المرء مضطجَعا

يقول: عليكِ من الدعاء مثلُ الذي دعيتِهِ لي. وهذا ظاهر.

ثم استُعمِلتْ الصلاة في الشرع، في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها وأنواعها المشهورة.

قال ابن جرير: وأرىٰ أن الصلاة المفروضة سُمِّيتْ صلاة، لأن المصلي يتعرَّض لاستنجاح طِلْبَتِه مِنْ ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه فيها من حاجته.

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وقيل: هي مشتقَّةٌ من الصِلي، وهو الملازمة للشيء، من قوله تعالىٰ: ﴿لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَىٰ﴾ أي: لا يلزمها ويدوم فيها.

وقيل: مشتقَّةٌ من تصلية الخشبة في النار لتُقَوَّم، كما أن المُصَلِّي يُقَوِّم عوجه بالصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾. واشتقاقها من الدعاء أصحُّ وأشهر. والله أعلم.

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالىٰ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴿٤﴾﴾

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يصدِّقونك بما جئتَ به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم.

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

أي: بالبعث والقيامة، والجنة والنار، والحساب والميزان. وإنما سُمِّيت الآخرة؛ لأنها بَعْدَ الدنيا.

وهذه الآيات الأربع عامّاتٌ في كل مؤمنٍ اتصف بها، وليس تصح واحدة منها بدون الأخرىٰ؛ بل كل واحدة مستلزمة للأخرىٰ، وشرط معها؛ فلا يصح الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول، وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

أجمعين والإيقان بالآخرة؛ كما أن هذا لا يصح إلا بذاك.

وقد أمر الله المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وأخبر تعالىٰ عن المؤمنين كلهم بذلك؛ فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسله وكتبه.

قال مجاهد: أربعُ آياتٍ من أول سورة البقرة في نَعْتِ المؤمنين، وآيتان في نَعْت الكافرين، وثلاثة عشرة آية في المنافقين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

يقول الله تعالىٰ: أُولَئِكَ أي المتَّصفون بما تقدَّم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلىٰ الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة؛ وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصالحات وترك المحرمات ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ أي: علىٰ نور وبيان وبصيرة من الله تعالىٰ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

قال ابن جرير: وأما قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ فإن معنىٰ ذلك أنهم علىٰ نور من ربهم، وبرهان واستقامة، وسداد بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم. وتأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: المُنْجِحون المُدْرِكون ما طلبوا عند الله من الفوز بالثواب، والخلود في الجنات، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الذين كفروا: أي الذين غطَّوا الحق وسَتَروه، سواء عليهم إنذارك وعدمه؛ فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ .

وقال تعالىٰ في حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ أي: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِدَ له، ومن أضلَّه فلا هادي له؛ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلِّغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولىٰ فلا تحزن عليهم، ولا يهمنَّك ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿إِنَّمَا أَنْت نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل﴾.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾

قال قتادة: أي استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم وعلىٰ أبصارهم غشاوة؛ فهم لا يبصرون هدًىٰ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال مجاهد: الختم الطبع.

وقال مجاهد أيضا: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله.

قال الأعمش: أرانا مجاهد بيده؛ فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه، يعني الكف، فإذا أذنب العبد ذنبًا ضم منه، وقال بإصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرىٰ، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرىٰ هكذا، حتىٰ ضم أصابعه كلها، قال: ثم يطبع عليه بطابع.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة علىٰ أن الله تعالىٰ قد وصف نفسه بالختم والطبع علىٰ قلوب الكافرين مجازاةً لكفرهم، كما قال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ وذَكَرَ حديث تقليب القلوب، ويا مقلب القلوب ثبِّت قلوبنا علىٰ دينك، وذَكَرَ حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي في الصحيح[1] عن

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

رسول الله ﷺ ؛ قال: (**تُعْرَض الفِتن علىٰ القلوب كالحصير عوداً عوداً؛ فأي قلب أُشربها نُكِت فيه نُكْتة سوداء، وأي قلبٍ أنكرها نُكِت فيه نُكْتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين: علىٰ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادّ كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا، ولا يُنْكر مُنْكَراً**) الحديث.

قال ابن جرير: أخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت علىٰ القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الخَتْم والطَبْع من قِبَل الله تعالىٰ، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلَك، ولا للكفر منها مَخْلَص؛ فذلك هو الخَتْم والطَبْع الذي ذكره الله في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ نظير الخَتْم والطَبْع علىٰ ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلىٰ ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها ثم حلِّها؛ فكذلك لا يصل الإيمان إلىٰ قلوب من وصف الله أنه خَتَمَ علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم إلا بعد فَضِّهِ خاتمه وحَلِّهِ رباطَه عنها.

واعلم أن الوقف التام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ جملة تامة؛ فإن الطبع يكون علىٰ القلب وعلىٰ السمع، والغشاوة -وهي الغطاء- تكون علىٰ البصر. قال ابن جُريج: الخَتْم علىٰ القلب والسمع، والغشاوة علىٰ البصر؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَة﴾.

ولمَّا تقدم وصفُ المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عَرَّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شَرَعَ في بيان حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر. ولما كان أمرهم يشتبه علىٰ كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة؛ كلٌّ منها نِفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذَكَرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريفًا لأحوالهم لتُجْتنب ويُجْتنب من تلبَّس بها أيضًا؛ فقال تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾

النِفَاق: هو إظهار الخير، وإسرار الشر، وهو أنواع:

اعتقادي: وهو الذي يُخَلِّد صاحبه في النار.

وعملي: وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله.

وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المَدَنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نِفاق؛ بل كان خلافه؛ من الناس من كان يظهر الكفر مُستكرَهًا وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنامَ علىٰ طريقة

مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب علىٰ طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضـًا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف؛ بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرةً من أحياء العرب حوالي المدينة؛ فلما كانت وقعة بدر العظمىٰ، وأظهر الله كلمته، وأَعلىٰ الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أُبي بن سلول، وكان رأسـًا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيِّد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا أن يُمَلِّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه؛ فبقي في نفسه من الإسلام وأهله. فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمرٌ قد توجَّه؛ فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هم علىٰ طريقته ونِحْلته، وآخرون من أهل الكتاب؛ فمِنْ ثَمَّ وُجِدَ النفاقُ في أهل المدينة ومَنْ حولها من الأعراب.

فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحدٌ نافق، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهـًا، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبةً فيما عند الله في الدار الآخرة.

ولهذا نبَّه الله سبحانه علىٰ صفات المنافقين لئلا يغترَّ بظاهر أمرهم

المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض مِن عدم الاحتراز منهم، ومِن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر؛ وهذا من المحذورات الكبار أن يُظَنَّ بأهل الفجور خير؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُه﴾ أي: إنما يقولون ذلك إذا جاءوك فقط لا في نفس الأمر.

وقوله تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه، كما قد يروج علىٰ بعض المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُون﴾. ولهذا قابلهم علىٰ اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا، ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرضٌ في الدين، وليس مرضـًا في الأجساد، وهذا المرض: الشكُّ في الإسلام ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي رجسـًا؛ وقرأ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانـًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ قال: شرّاً إلىٰ شرهم، وضلالةً إلىٰ ضلالتهم.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن بن زيد -رحمه الله- حسن، وهو الجزاء من جنس العمل. وهو نظير قوله تعالىٰ أيضـًا: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

وقد سُئِل القرطبي وغيره من المفسرين عن حِكْمِة كَفِّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم، وذكروا أجوبةً عن ذلك؛ منها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(أكره أن يتحدَّث العرب أن محمداً يَقْتل أصحابه)**.

ومعنىٰ هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تنفير لكثير مِن الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حِكْمَة قَتْلِه لهم، وأن قَتْلَه إياهم إنما هو علىٰ الكفر؛ فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه.

قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم، كما كان يعطي المؤلفة

قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم.

قال مالك: المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم.

قلت: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر؛ هل يستتاب أم لا؟ أو يُفَرَّق بين أن يكون داعيةً أم لا؟ أو يتكرر منه ارتداده أم لا؟ أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه، أو بعد أن ظهر عليه؟ علىٰ أقوال متعددة، موضعُ بسطها وتقريرها وعزوها كتابُ الأحكام.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قال أبو العالية: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني لا تعصوا في الأرض، لأنه من عصىٰ الله في الأرض، أو بمعصية الله، فقد أفسد في الأرض لأنَّ صلاح الأرض والسماء بالطاعة.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم لربهم، وركوبهم ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به، والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله علىٰ أولياء الله إذا وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً؛ فذلك إفساد المنافقين في الأرض.

وهذا الذي قاله حَسَن؛ فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينِ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا﴾ فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره علىٰ المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غرَّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له؛ ووالىٰ الكافرين علىٰ المؤمنين، ولو أنه استمر علىٰ حاله الأول لكان شره أخف، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ أي: نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين؛ ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء. يقول الله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: ألا إن هذا الذي يعتمدونه، ويزعمون أنه إصلاح، هو عين الفساد، ولكنْ مِنْ جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: وإذا قيل للمنافقين: آمِنوا كما آمن الناس أي: كإيمان

الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار، وغير ذلك مما أخبر المؤمنون به وعنه؛ وأطيعوا الله ورسوله ﷺ في امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يَعْنون -لعنهم الله- أصحاب رسول الله رضي الله عنهم.

والسُّفهاء: جمع سفيه، كما أن الحُكماء جمع حكيم، والحُلماء جمع حليم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي، القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار.

وقد تولىٰ الله سبحانه وتعالىٰ جوابهم في هذه المواطن كلها؛ فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فأكَّد وحصر السفاهة فيهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل؛ وذلك أردىٰ لهم، وأبلغ في العمىٰ والبعد عن الهدىٰ.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمَنَّا أي: أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقًا، ومصانعةً وتقيةً، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي: سادتهم وكبرائهم ورؤسائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين.

قال ابن جرير: وشياطين كل شيءٍ مَرَدَتُهُ، ويكون الشيطان من الإنس والجن؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قال ابن عباس: أي إنما نحن ساخرون بأصحاب محمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ جواباً لهم ومقابلةً علىٰ صنيعهم: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال ابن جرير: أخبر تعالىٰ أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية.

قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالىٰ ذِكْرُه، وسخريته ومكره، وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به، عند قائل هذا القول ومتأوِّل هذا التأويل.

قال: وقال آخرون: هذا وأمثاله علىٰ سبيل الجواب؛ كقول الرجل

لمن يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك. ولم يكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه.

قالوا: وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ علىٰ الجواب، والله لا يكون منه المكر ولا الهزء. والمعنىٰ أن المكر والهزء حاق بهم.

قال: وقال آخرون: إن معنىٰ ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلىٰ مَرَدَتِهم قالوا: إنَّا معكم علىٰ دينكم في تكذيب محمد وما جاء به وإنما نحن مستهزئون بما نظهر لهم من قولنا لهم؛ فأخبر تعالىٰ أنه يستهزئ بهم، فيُظهر لهم من أحكامه في الدنيا من عصمة دمائهم وأموالهم، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة؛ يعني: من العذاب والنكال.

ثم شرع ابن جرير يوجِّه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية علىٰ وجه اللعب والعبث منتف عن الله عزّ وجل بالإجماع. وأما علىٰ وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال مجاهد: يزيدهم.

قال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُون﴾ وقال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُون﴾.

قال بعضهم: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة، وهي في الحقيقة

نقمة. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال ابن جرير: والصواب: يزيدهم علىٰ وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. قال ابن جرير: والعَمَه: الضلال، يقال: عَمِه فلان يَعْمَه عَمَهـاً وعموها، إذا ضلَّ.

قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في ضلالتهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه، وعلاهم رجسه، يترددون حيارىٰ ضُلالاً، لا يجدون إلىٰ المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله تعالىٰ قد طبع علىٰ قلوبهم، وختم عليها، وأعمىٰ أبصارهم عن الهدىٰ، وأغشاها؛ فلا يبصرون رشداً، ولا يهتدون سبيلاً.

وقال بعضهم: العمىٰ في العين، والعَمَهُ في القلب؛ وقد يُستعمل العمىٰ في القلب أيضـاً؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

قال قتادة: أي استحبُّوا الضلالة علىٰ الهدىٰ.

وهذا الذي قاله قتادة يُشْبه في المعنىٰ قوله تعالىٰ في ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾.

وحاصل قول المُفَسِّرين فيما تقدم: أن المنافقين عدلوا عن الهدىٰ إلىٰ الضلال، واعتاضوا عن الهدىٰ بالضلالة؛ وهو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: بذلوا الهدىٰ ثمنًا للضلالة. وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلىٰ الكفر؛ كما قال تعالىٰ فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أو أنهم استحبوا الضلالة علىٰ الهدىٰ، كما قد يكون حال فريق آخر منهم؛ فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة. ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ أي: ما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقال: مَثَل ومِثْل ومَثِيل أيضًا. والجمع أمثال؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

وتقرير هذا المَثَل أنَّ الله سبحانه شبَّههم في اشترائهم الضلالة

بالهدىٰ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلىٰ العمىٰ، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنَّس بها؛ فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدىٰ؛ وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمىٰ لو كان ضياءٌ لما أبصره؛ فلهذا لا يرجع إلىٰ ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدىٰ، واستحبابهم الغيَّ علىٰ الرُشد. وفي هذا المثل دلالة علىٰ أنهم آمنوا، ثم كفروا، كما أخبر تعالىٰ عنهم في غير هذا الموضع. والله أعلم.

وقد حكىٰ هذا الذي قلناه فخرُ الدين الرازي في تفسيره عن السُدِّي؛ ثم قال: والتشبيه ها هنا في غاية الصحة؛ لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور فوقعوا في حيرة عظيمة؛ فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدِين.

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ها هنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات؛ واحتجَّ بقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

والصواب: أن هذا إخبارٌ عنهم في حال نفاقهم وكفرهم؛ وهذا لا ينفىٰ أنه كان حصل لهم إيمانٌ قبل ذلك ثم سُلِبُوه، وطُبِعَ علىٰ قلوبهم. ولم يستحضر ابن جرير رحمه الله هذه الآية ها هنا، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُون﴾ فلهذا وجَّه هذا المَثَل بأنَّهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الإيمان؛ أي: في الدنيا؛ ثم أعقبهم ظلماتٍ يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقىٰ لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق.

﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ أي لا يهتدون إلىٰ سبيل خير، ولا يعرفونها، وهم مع ذلك صُمٌّ لا يسمعون خيراً، بُكْمٌ لا يتكلمون بما ينفعهم، عُمْيٌ في ضلالة وعماية البصيرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَىٰ الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور﴾ فلهذا لا يرجعون إلىٰ ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

وهذا مثلٌ آخرُ ضربه الله تعالىٰ لضَرْبٍ آخرَ من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارةً، ويشكُّون تارةً أخرىٰ؛ فقلوبهم في حال شكهم

وكفرهم وترددهم كَصَيِّبٍ.

والصَيِّب: المطر؛ قاله ابن مسعود، وابن عباس، رضي الله عنهم. وقال الضحاك: الصيِّب هو السحاب. والأشهر أنَّه المطر، نزل من السماء في حال ظلمات؛ وهي الشكوك، والكفر، والنفاق.

﴿وَرَعۡدٞ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف؛ فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد، والفزع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُو﴾ وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

والبرق هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: ولا يجدي عنهم حذرهم شيئًا؛ لأن الله محيط بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته؛ كما قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾.

ثم قال: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي: لشدَّته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عزِّ الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا

ليرجعوا إلىٰ الكفر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ﴾.

وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يُعطىٰ الناس النور بحسب إيمانهم؛ فمنهم من يُعطىٰ من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك؛ ومنهم من يُطفأ نوره تارة ويضيء له أخرىٰ، ومنهم من يمشي علىٰ الصراط تارة ويقف أخرىٰ؛ ومنهم من يطفأ نوره بالكلية، وهم الخُلَّص من المنافقين الذين قال تعالىٰ فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾. وقال في حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فإذا تقرر هذا صار الناس أقسامـًا:

مؤمنون خُلَّص وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة.

وكفار خُلَّص وهم الموصوفون بالآيتين بعدها.

ومنافقون وهم قسمان:

خُلَّص وهم المضروب لهم المثل الناري.

ومنافقون يتردَّدون تارةً يظهر لهم لَمْعٌ من الإيمان، وتارةً يخبو؛ وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخفُّ حالاً من الذين قبلهم.

وهذا المقام يُشْبه من بعض الوجوه ما ذُكِرَ في سورة النور، من ضَرْبِ مَثَلِ المؤمن، وما جعل الله في قلبه من الهدىٰ والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دُرِّي؛ وهي قلب المؤمن المفطور علىٰ الإيمان، واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله.

ثم ضَرَبَ مَثَل العُبَّاد من الكفار الذين يعتقدون أنهم علىٰ شيء، وليسوا علىٰ شيء، وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا الآية﴾.

ثم ضَرَبَ مَثَلَ الكُفَّار الجُهَّال الجهل البسيط، وهم الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

فقسَّم الكفار ها هنا إلىٰ قسمين: داعيةٍ ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ

مَرِيدٍ وقال بعده: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾.

وقد قسَّم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان إلىٰ قسمين: سابقون وهم المقرَّبون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخَّص من مجموع هذه الآيات الكريمات:

أن المؤمنين صنفان: مقرَّبون وأبرار.

وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلِّدون.

وأن المنافقين صنفان: منافقٌ خالص، ومنافقٌ فيه شعبةٌ من نفاق، كما جاء في الصحيحين[1]، عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ: **(ثلاثٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: مَنْ إذا حَدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِن خان).**

استدلوا به علىٰ أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق؛ إما عملي لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلَّت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

روىٰ الإمام أحمد[1] عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يُزْهِر، وقلب أغلف مربوط علىٰ غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر. وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق. ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب. ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم؛ فأي المادتين غلبت علىٰ الأخرىٰ غلبت عليه)** وإسناده جيد حسن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالىٰ نفسه بالقدرة علىٰ كل شيء في هذا الموضع، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلىٰ إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير. ومعنىٰ قدير قادر، كما أن معنىٰ عليم عالم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ فَلَا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٧).

﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

شرع تبارك وتعالىٰ في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالىٰ هو المنعم علىٰ عبيده بإخراجهم من العدم إلىٰ الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشًا؛ أي: مهداً كالفراش مقررةً موطَّأةً، مثبَّتةً بالرواسي الشامخات، والسماء بناءً وهو السقف، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وأنزل لهم من السماء ماءً فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد، رزقًا لهم ولأنعامهم، كما قرَّر هذا في غير موضع من القرآن.

ومن أشبه الآيات بهذه الآية قولُه تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومضمونه أنه الخالق الرازق، مالك الدار وساكنيها ورازقهم؛ فبهذا يستحق أن يُعْبَد وحدَه، ولا يُشْرَك به غيرُه؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الصحيحين[1]، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قلت: يا رسول الله

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦).

أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: (**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**..) الحديث. وكذا حديث معاذ[1]: (**أتدري ما حق الله علىٰ عباده؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا**..) الحديث. وفي الحديث الآخر[2]: (**لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شاء فلان**). وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ. فقال ﷺ: (**أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده**) أخرجه النسائي، وابن ماجه[3].

وهذا كله صيانةٌ وحمايةٌ لجناب التوحيد. والله أعلم.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في قول الله عزَّ وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: الأنداد هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي. ويقول: لولا

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١١٧)، والنسائي في "اليوم والليلة" (٩٩٥)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٣٩).

كلبة هذا لأتانا اللصوص البارحة. ولولا البَطُّ في الدار لأتىٰ اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلان؛ هذا كله به شرك.

وهذه الآية دالة علىٰ توحيده تعالىٰ بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسّرين كالرازي وغيره علىٰ وجود الصانع تعالىٰ، وهي دالة علىٰ ذلك بطريق الأولىٰ؛ فإن من تأمل هذه الموجودات السُفلية والعلوية، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها، ومنافعها، ووضْعها في مواضع النفع بها مُحْكَمَةً، عَلِمَ قدرة خالقها، وحكمته وعلمه، وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب حين سُئل: ما الدليل علىٰ وجود الرب تعالىٰ؟ فقال: يا سبحان الله! إن البعرة لتدل علىٰ البعير، وإن أثر الأقدام لتدل علىٰ المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج! ألا يدل ذلك علىٰ وجود اللطيف الخبير؟

وحكىٰ فخر الدين الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك، فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات.

وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالىٰ، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أُخْبِرتُ عنه، ذكروا لي أن سفينةً في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيءُ وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتىٰ

تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا له: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسُفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المُحْكَمَة ليس لها صانع؟! فبُهِتَ القوم، ورجعوا إلىٰ الحق، وأسلموا علىٰ يديه.

وعن الشافعي أنه سُئِل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، يأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقيه بعراً وروثـًا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك، وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه سُئِل عن ذلك، فقال: ها هنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز؛ فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة.

وسُئل أبو نواس عن ذلك، فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلىٰ آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصاتٌ ... بأحداق هي الذهب السبيكُ
علىٰ قضب الزبرجد شاهداتٌ ... بأن الله ليس له شريكُ

وقال ابن المعتز:

فيـا عـجبـاً كيـف يعصــىٰ الإلـ ـــــه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كــل شــــيء لــه آيــةٌ تــدل عــلــىٰ أنــه واحــدُ

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرةً، ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلىٰ البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾.

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلىٰ قطر للمنافع؛ وما ذرأ في الأرض من الحيوانات المتنوعة، والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال، مع اتحاد طبيعة التربة والماء، استدل علىٰ وجود الصانع، وقدرته العظيمة، وحكمته، ورحمته ولطفه بهم، وإحسانه إليهم، وبره بهم، لا إله غيره، ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب.

والآيات في القرآن الدالة علىٰ هذا المقام كثيرة جداً.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن

مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ
وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم شرع تعالىٰ في تقرير النبوة بعد أن قرَّر أنه لا إله إلا هو؛ فقال مخاطبًا للكافرين: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ يعني: محمد ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارِضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا علىٰ ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك.

وقد تحدَّاهم الله تعالىٰ بهذا في غير موضع من القرآن، فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقال في سورة سبحان: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا﴾.

وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾.

وقال في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ

الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذه أيضـًا معجزة أخرىٰ، وهو أنه أخبر خبراً جازمـًا قاطعـًا مقدمـًا غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يُعارَض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين؛ وكذلك وقع الأمر، لم يُعارَض من لدن النبي ﷺ إلىٰ زماننا هذا؛ وأنىٰ يتأتىٰ ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟

ومن تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونـًا ظاهرةً وخفيةً من حيث اللفظ ومن جهة المعنىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿الر * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فأُحكمت ألفاظه، وفُصِّلت معانيه؛ فكلٌ من لفظه ومعناه فصيحٌ لا يُجارىٰ ولا يُدانىٰ؛ فقد أخبر عن مغيَّبات ماضية؛ وكانت ووقعت طِبْق ما أخبر سواءً بسواء، وأمر بكل خير، ونهىٰ عن كل شر؛ كما قال تعالىٰ: و﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ أي: صدقـًا في الإخبار، وعدلاً في الأحكام؛ فكلُّه حقٌّ وصدق، وعدلٌ وهدىٰ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها؛ كما يقال في الشعر: إن أعذبه أكذبه.

وتجد القصيدة الطويلة المديدة غالبها في وصف النساء، أو الخيل،

أو الخمر، أو في مدح شخص معين، أو فرس، أو ناقة، أو حرب، أو كائنة أو سير أو مخافة، أو سبع، أو شيء من المشاهدات المتعيِّنة التي لا تفيد شيئًا إلا قدرة المتكلم المعين علىٰ التعبير عن الشيء الخفي أو الدقيق، وإبرازه إلىٰ الشيء الواضح. ثم تجد له فيه بيتًا أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير؛ فإنه إن تأملتَ أخباره وجدتَها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطةً أو وجيزةً، وسواء تكرَّرت أم لا؛ وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء؛ وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات؛ فما ظنك بالقلوب الفاهمات؛ وإن وعد أتىٰ بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلىٰ دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن؛ كما قال في الترغيب: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال: ﴿وفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

وقال في الزجر: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِه﴾.

وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُون﴾.

إلىٰ غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت علىٰ الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب؛ والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعتَ الله تعالىٰ يقول في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعِها سمعك، فإنها خير يأمر به، أو شر ينهىٰ عنه.

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وبيان الأحوال، وفي وصف الجنة والنار، وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذّ والعذاب الأليم؛ بشرت به، وحذرت وأنذرت؛ ودعتْ إلىٰ فعل الخيرات، واجتناب المنكرات، وزهَّدتْ في الدنيا، ورغبَّتْ في الأخرىٰ، وثبَّتتْ علىٰ الطريق المُثلىٰ، وهدتْ إلىٰ صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، ونفتْ عن القلوب رجسَ الشيطان الرجيم.

ولهذا ثبت في الصحيحين[1]، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

قال: (**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**) هذا لفظ مسلم.

وقوله ﷺ: (**وإنما كان الذي أوتيتُ وحياً**) أي: الذي اختصصتُ به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزةً عند كثير من العلماء. والله أعلم.

وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة علىٰ نبوَّته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر. ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أما الوَقود -بفتح الواو- فهو ما يُلقىٰ في النار لإضرامها؛ كالحطب ونحوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُون﴾.

والمراد بالحجارة ها هنا: هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المُنْتِنة، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت، أجارنا الله منها.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية علىٰ أن النار موجودة الآن، لقوله تعالىٰ: أُعِدَّتْ أي: أُرْصِدَتْ وهُيِّئَتْ.

تنبيه:

قوله تعالىٰ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ يَعُمُّ كل سورة في القرآن طويلةً كانت أو قصيرةً؛ فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها؛ وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين الناس سلفًا وخلفًا، فكلُّ سورة من سور القرآن معجزة، لا يستطيع البشر معارضتها طويلةً كانت أو قصيرةً كسورة العصر.

قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

وقد روينا عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه وفد علىٰ مسيلمة الكذَّاب قبل أن يُسْلِم، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزِلَ علىٰ صاحبكم بمكة في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أُنْزِلَ عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ قال: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْر..﴾ إلىٰ آخرها.

ففكَّر ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: ولقد أُنزل عليّ مثلها؛ فقال: وما هو؟ فقال: يا وبْر يا وبْر، إنما أنت أذنان وصَدْر، وسائرك حَقْرٌ نَقْر! ثم قال: كيف ترىٰ يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني لأعلم أنك تكذب!!

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

لما ذكر تعالىٰ ما أعدَّه لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة؛ وهذا معنىٰ تسمية القرآن مثاني علىٰ أصح أقوال العلماء، كما سنبسطه في موضعه؛ وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء، ثم الأشقياء، أو عكسه، وحاصله ذِكْر الشيء ومقابله.

وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار، كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة.

ومعنىٰ تجري من تحتها الأنهار؛ أي: من تحت أشجارها وغرفها.

وقد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري في غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما؛ فطينها المسك

الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله وكرمه إنه هو البر الرحيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قالوا في الجنة: هذا الذي رُزِقنا من قبل في الدنيا، يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا: التفاح بالتفاح، والرمان بالرمان، يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: مطهرة من القذر والأذىٰ. وقال قتادة: مطهرة من الأذىٰ والمأثم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له، ولا انقضاء؛ بل في نعيم سرمدي أبدي علىٰ الدوام. والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾

معنىٰ الآية أنه تعالىٰ أخبر أنه لا يستحيي أي: لا يستنكف، وقيل: لا يخشىٰ، أن يضرب مثلاً ما؛ أي: أي مثل كان بأي شيء كان صغيراً كان أو كبيراً.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَا فَوۡقَهَا﴾: فيه قولان:

أحدهما: فما دونها في الصغر والحقارة؛ كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك - يعني: فيما وصفت. وهذا قول أكثر المحقِّقين.

والثاني: فما فوقها: فما هو أكبر منها؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة؛ وهو اختيار ابن جرير.

فأخبر أنه لا يستصغر شيئًا يضرب به مثلاً؛ ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، وكما لم يستنكف عن خلقها، كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضعُف الطَّالِبُ

وَالْمَطْلُوب﴾ وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يشاء﴾ وقال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ ثم قال: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ الآية﴾ وقال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ..﴾.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعتُ المَثَلَ في القرآن فلم أفهمه بكيت علىٰ نفسي؛ لأن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾: الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها.

ونقل السُدِّي في تفسيره عن ابن مسعود وعن ابن عبَّاس وعن ناس من الصحابة رضي الله عنهم: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني به المنافقين ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ يعني به المؤمنين؛ فيزيد هؤلاء ضلالةً إلىٰ ضلالتهم؛ لتكذيبهم بما قد علموه حقًا يقينًا من المثل الذي ضربه الله بما ضرب لهم، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، ويهدي به -يعني بالمَثَل- كثيراً من أهل الإيمان والتصديق؛ فيزيدهم هدًىٰ إلىٰ هداهم، وإيمانًا إلىٰ إيمانهم؛ لتصديقهم بما قد علموه حقًا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً، وإقرارهم به؛ وذلك هداية من الله لهم به.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ قال أبو العالية: هم أهل النفاق.

والفاسق في اللغة: هو الخارج عن الطاعة أيضًا. تقول العرب: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة لخروجها من جحرها للفساد.

وثبت في الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ قال: **(خمس فواسق يُقْتَلن في الحِل والحرم: الغراب والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور)**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨).

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكنَّ فِسْقَ الكافر أشدُّ وأفحش، والمراد به في هذه الآية الفاسق الكافر، والله أعلم؛ بدليل أنه وصفهم بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ..﴾ ..

إلىٰ أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

وقد اختلف أهل التفسير في معنىٰ العهد الذي وُصِفَ هؤلاء الفاسقين بنقضه؛ فقال بعضهم: هو وصية الله إلىٰ خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلىٰ لسان رسله؛ ونقضهم ذلك: هو تركهم العمل به.

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم؛ وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما

فيها، واتباع محمد ﷺ إذا بُعِث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم؛ ونقضهم ذلك: هو جحودُهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليُبيننُّه للناس ولا يكتمونه؛ فأخبر تعالىٰ أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: بل عنىٰ بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلىٰ جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة علىٰ ربوبيته؛ وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم علىٰ صدقهم؛ قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق. وإلىٰ هذا مال الزمخشري، وهو حسن.

حكىٰ هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات، كما فسره قتادة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ورجَّحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك؛ فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعوه وتركوه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ قال ابن جرير: الخاسرون

جمعُ خاسرٍ، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته، بأن يوضع من رأس ماله في بيعه. وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلىٰ رحمته.

﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾

يقول تعالىٰ: محتجًّا علىٰ وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده، أو تعبدون معه غيره؟ ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ أي: وقد كنتم عدمًا فأخرجكم إلىٰ الوجود، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُون﴾ وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورا﴾ والآيات في هذا كثيرة.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾: أي كنتم أمواتًا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئًا حتىٰ خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم، قال: وهي مثل قوله تعالىٰ: ﴿قالوا ربنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْن﴾.

وقد عبَّر عن الحال قبل الوجود بالموت، لجامع ما يشتركان فيه من عدم الإحساس، كما قال تعالىٰ في الأصنام: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُون..﴾ وقال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾

لما ذكر تعالىٰ للناس دلالةً من خلقهم، وما يشاهدونه من أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض؛ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: قصد إلىٰ السماء. والاستواء ها هنا: مضمَّنٌ معنىٰ القصد والإقبال؛ لأنه عُدِّي بـ إلىٰ.

فسواهن؛ أي: فخلق السماء سبعـًا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق؛ كما قال: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا

فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾

يُخْبِر تعالىٰ بامتنانه علىٰ بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلىٰ قبل إيجادهم؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص علىٰ قومك ذلك.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا، قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾.

والظاهر أنه لم يُرِدْ آدم عينًا؛ إذ لو كان ذلك لما حَسُنَ قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو فهموه من الطبيعة البشرية؛ فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من

صلصال من حمإ مسنون؛ أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم.

وقول الملائكة هذا ليس علىٰ وجه الاعتراض علىٰ الله، ولا علىٰ وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين؛ وقد وصفهم الله تعالىٰ بأنهم ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ أي: لا يسألونه شيئًا لم يأذن لهم فيه.

وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا؛ ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؛ أي: نصلي لك؛ أي: ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلاَّ وقع الاقتصار علينا؟ فقال الله تعالىٰ مجيبًا لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف علىٰ المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعُبَّاد والزُهَّاد، والأولياء والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون، والخاشعون، والمُحبُّون له تبارك وتعالىٰ المتَّبعون رسلَه صلوات الله وسلامه عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال قتادة، قال: التقديس: الصلاة.

وقال السُدِّي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نصلي لك.

وقال مجاهد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: نعظِّمك ونكبِّرك.

وقال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير. ومنه قولهم: سبُّوح قدُّوس: يعني بقولهم: سبوح: تنزيه لله، وبقولهم قدوس: طهارة وتعظيم له ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة؛ يعني بذلك: المطهرة؛ فمعنىٰ قول الملائكة إذاً: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ننسبك إلىٰ ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس، وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

وفي صحيح مسلم[1]، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ سُئل أي الكلام أفضل؟ قال: **(ما اصطفىٰ الله لملائكته: سبحان الله وبحمده)**.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل، وقوم صالحون وساكنو الجنة.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣١).

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هذا مقامٌ ذكر الله تعالىٰ فيه شرف آدم علىٰ الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم. وهذا كان بعد سجودهم له؛ وإنما قدَّم هذا الفصل علىٰ ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالىٰ بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا، ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس؛ إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وقال مجاهد: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علَّمه اسم كل دابَّة، وكل طير، وكل شيء.

وقال الربيع في رواية عنه: علّمه أسماء الملائكة.

واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال:

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل.

وهذا الذي رجَّح به ليس بلازم؛ فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبَّر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولهذا روىٰ البخاري[1] في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: (**يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلىٰ ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربِّك حتىٰ يريحنا من مكاننا هذا..**) الحديث.

والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام: (**فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس؛ خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء**).

فدلَّ هذا علىٰ أنه علَّمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يعني: المسمَّيات. قال قتادة: أي عرض تلك

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

الأسماء علىٰ الملائكة.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين في قولكم: إني إن جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني ذريته، وأفسدوا، وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني، واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس؛ فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرىٰ أن تكونوا غير عالمين.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالىٰ أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء أو أن يعلموا شيئًا إلا ما علمهم الله تعالىٰ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء، لك الحكمة في ذلك؛ والعدل التام.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبرائيل، أنت ميكائيل، أنت إسرافيل،

حتىٰ عدد الأسماء كلها.

فلما ظهر فضل آدم عليه السلام علىٰ الملائكة عليهم السلام في سرده ما علَّمه الله تعالىٰ من أسماء الأشياء قال الله تعالىٰ للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي: ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ وكما قال تعالىٰ إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

هذه كرامة عظيمة من الله تعالىٰ لآدم امتن بها علىٰ ذريته حيث أخبر أنه تعالىٰ أمر الملائكة بالسجود لآدم.

قال قتادة: حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام علىٰ ما أعطاه الله من الكرامة؛ وقال: أنا ناريٌّ وهذا طينيٌّ. وكان بدء الذنوب الكبر؛ استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام.

قلت: وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (**لا يدخل الجنة من**

كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر)[1].

وقد كان في قلب إبليس من الكبر، والكفر والعناد، ما اقتضىٰ طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس.

وقد تكلم كثير من المفسرين عند هذه الآية وهي الأمر بسجود الملائكة لآدم علىٰ مسألة تفضيل البشر علىٰ الملك أو بالعكس، وقد بسط الكلام فيها فخر الدين الرازي في تفسيره، وحكىٰ عن أكثر أهل السنة أن الأنبياء أفضل من الملائكة، إلا أن أبا بكر الباقلاني، وأبا عبدالله الحليمي ذهبا إلىٰ تفضيل الملائكة علىٰ الأنبياء، ثم شرع بذكر دلائل كل قول من الأقوال، وهذه المسألة مقررة في علم الأصول، وفيها أقوال كثيرة، ولم يتكلم كثير من السلف فيها، فرأينا الإضراب عن بسط الكلام فيها ها هنا، والله أعلم بالصواب.

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

يقول الله تعالىٰ إخباراً عما أكرم به آدم: بعد أن أمر ملائكته بالسجود

---

(١) أخرجه مسلم (٩١).

له فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة؛ يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما يشاء رغداً؛ أي: هنيئًا واسعًا طيبًا.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالىٰ، وامتحان لآدم.

وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي؟ قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال إن الله جل ثناؤه نهىٰ آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت علىٰ التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً علىٰ ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة.

وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: شجرة العنب، وقيل: شجرة التين.

وجائز أن تكون واحدةً منها؛ وذلك عِلْمٌ إذا عُلِمَ لم ينفع، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به. والله أعلم.

وكذلك رجَّح الإبهامَ فخرُ الدين الرازي في تفسيره، وهو الصواب.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله: عنها عائداً إلىٰ الجنة، ويصح أن يكون عائداً علىٰ أقرب المذكورين، وهو والشجرة.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي: من اللباس، والمنزل الرحب، والرزق الهنيء، والراحة.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: قرارٌ وأرزاقٌ وآجال.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلىٰ وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

قال فخر الدين الرازي: اعلم أن في هذه الآية تهديداً عظيماً عن كل المعاصي، فمن تصوَّر ما جرىٰ علىٰ آدم بسبب إقدامه علىٰ هذه الزلَّة الصغيرة كان علىٰ وجل شديد من المعاصي؛ قال الشاعر:

يا ناظراً يرنو بعيني راقدٍ ... ومشاهداً للأمر غير مشاهدِ
تَصِلُ الذنوب إلىٰ الذنوب وترتجي ... دَرَجَ الجِنان ونيلَ فوز العابدِ
أَنسيتَ ربك حين أخرج آدماً ... منها إلىٰ الدنيا بذنب واحدِ

قال ابن القيِّم[1]:

ولكنَّنا سَبْيُ العدو فهل ترىٰ ... نعودُ إلىٰ أوطاننا ونُسَلَّمُ؟

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

---

(١) هذا البيت للإمام ابن القيِّم (حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح) ص١٤. وهو مذكورٌ في بعض نشرات «تفسير ابن كثير» دون بعض.

وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الكلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك؛ رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: إنه يتوب علىٰ من تاب إليه وأناب؛ كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيما﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ مَتَابا﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أنه تعالىٰ يغفر الذنوب، ويتوب علىٰ من يتوب؛ وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: من أقبل علىٰ ما أنزلت به الكتب، وأرسلت

به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلون من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ﴾ قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ أي: مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة وأتم والسلام، ومهيجًا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام؛ وتقديره: يا بني العبد الصالح المطيع لله؛ كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم، افعل كذا؛ يا ابن الشجاع، بارِز الأبطال؛ يا ابن العالم، اطلب العلم، ونحو ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ هذا كقول موسىٰ عليه السلام لهم: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعني: في زمانهم.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أوفوا بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم أُنْجِزْ لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه، واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التي كانت في أعناقكم، بذنوبكم التي كانت من إحداثكم.

وقال أبو العالية: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ﴾ قال: عهده إلىٰ عباده: دينه الإسلام أن يتبعوه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: أرض عنكم، وأدخلكم الجنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: فاخشون؛ قاله أبو العالية.

وهذا انتقال من الترغيب إلىٰ الترهيب؛ فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلىٰ الحق، واتِّباع الرسول ﷺ، والاتِّعاظ بالقرآن وزواجره، وامتثال أوامره، وتصديق أخباره، والله الهادي لمن يشاء إلىٰ صراط مستقيم؛ ولهذا قال: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ويعني به: القرآن الذي أنزله علىٰ محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيراً

ونذيراً، وسراجـاً منيراً، مشتملاً علىٰ الحق من الله تعالىٰ، مصدقـاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل.

قال أبو العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقـاً لما معكم؛ يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوبـاً عندهم في التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ قال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ.

واختار ابن جرير أن الضمير في قوله: به عائد علىٰ القرآن الذي تقدم ذكره في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان؛ لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ؛ ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن.

وأما قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير؛ وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرةً؛ فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي، وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها؛ فإنها قليلة فانية؛ قال

الحسن البصري: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الثمن القليل الدنيا بحذافيرها.

وقيل: معناه لا تعتاضوا عن البيان والإيضاح، ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس، لتستمروا علىٰ رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب.

وفي سنن أبي داود، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **(من تعلم علماً مما يبتغىٰ به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة)**[1].

وقوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ قال طَلْق بن حبيب: التقوىٰ أن تعمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، علىٰ نور من الله، وتترك معصية الله، مخافة عذاب الله، علىٰ نور من الله.

ومعنىٰ قوله: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ أنه تعالىٰ يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وصححه الألباني.

يقول تعالىٰ ناهيًا لليهود عما كانوا يعتمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهاهم عن الشيئين معًا، وأمرهم بإظهار الحق، والتصريح به؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب.

وقال أبو العالية: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدُّوا النصيحة لعباد الله في أمر محمد ﷺ .

وقال قتادة: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي، وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم.

والبيان: الإيضاح، وعكسه الكتمان، وخلط الحق بالباطل.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ قال مقاتل: أمر اللهُ أهلَ الكتاب أن يصلُّوا مع النبي ﷺ وأمرهم أن يؤتوا الزكاة؛ أي: يدفعونها إلىٰ النبي ﷺ وأمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ، يقول: كونوا

منهم ومعهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة.

وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية علىٰ وجوب صلاة الجماعة، ولبسط ذلك، كتابُ الأحكام الكبير إن شاء الله تعالىٰ، وقد تكلم القرطبي علىٰ مسائل الجماعة والإمامة، فأجاد.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جِمَاع الخير، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه علىٰ من قصر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم! فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصَّروا من عمايتكم.

قال ابن جريج: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، ويَدَعون العمل بما يأمرون به الناس؛ فعيَّرهم الله بذلك؛ فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة.

﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تنهون الناس عن الكفر بما

عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم؛ أي: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتنقضون ميثاقي، وتجحدون ما تعلمون من كتابي.

والغرض أن الله تعالىٰ ذمَّهم علىٰ هذا الصنيع، ونبَّههم علىٰ خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه. وليس المراد ذمهم علىٰ أمرهم بالبر مع تركهم له؛ بل علىٰ تركهم له؛ فإن الأمر بالمعروف معروف؛ وهو واجب علىٰ العالم، ولكن الواجب والأولىٰ بالعالِم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم؛ كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ فكلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر علىٰ أصح قولي العلماء من السلف والخلف.

وذهب بعضهم إلىٰ أن مرتكب المعاصي لا ينهىٰ غيره عنها، وهذا ضعيف. وأضعف منه تمسُّكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها.

والصحيح أن العالِم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهىٰ عن المنكر وإن ارتكبه؛ قال مالك، عن ربيعة: سمعتُ سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر حتىٰ لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهىٰ عن منكر.

قال مالكٌ -وصدق- : من ذا الذي ليس فيه شيء؟

قلت: لكنه والحالة هذه مذموم علىٰ ترك الطاعة، وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته علىٰ بصيرة؛ فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم.

ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد علىٰ ذلك؛ كما قال أسامة بن زيد رضي الله عنه: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: **(يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقىٰ في النار فتندلق به أقتابه، فيدور بها في النار، كما يدور الحمار برحاه، فيُطيف به أهل النار؛ فيقولون: يا فلان؛ ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فقال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)** رواه البخاري ومسلم[1].

قال بعضهم: جلس أبو عثمان الحيرىٰ الزاهد يومًا علىٰ مجلس للتذكير فأطال السكوت، ثم أنشأ يقول:

وغير تقيٍّ يـأمر النـاس بـالتقىٰ   طبيبٌ يداوي الناس وهو مريضُ

قال: فضج الناس بالبكاء.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

لا تنه عن خلق وتأتي مثلَهُ عار عليك إذا فعلت عظيمُ
وابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُقْبَل إن وعظت ويقتدىٰ بالقول منك وينفع التعليمُ

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالىٰ آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا علىٰ طلب الآخرة بالصبر علىٰ الفرائض والصلاة؛ فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نَصَّ عليه مجاهد.

قال القرطبي وغيره: ولهذا يُسَمَّىٰ رمضان شهر الصبر، كما نطق به الحديث.

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قَرَنَه بأداء العبادات؛ وأعلاها فعلُ الصلاة.

وأما قوله: ﴿وَالصَّلاَةِ﴾ فإن الصلاة من أكبر العون علىٰ الثبات في الأمر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾.

قال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: قال حذيفة: رجعت

إلىٰ النبي ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلىٰ.

وروىٰ ابن جرير أن ابن عباس نُعي إليه أخوه قُثم، وهو في سفر؛ فاسترجع، ثم تنحىٰ عن الطريق، فأناخ فصلىٰ ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلىٰ راحلته؛ وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا﴾ عائد إلىٰ الصلاة؛ نصَّ عليه مجاهد. واختاره ابن جرير.

ويُحْتمل أن يكون عائداً علىٰ ما دل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك؛ كقوله تعالىٰ في قصة قارون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلْقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: وما يلقىٰ هذه الوصية إلا الذين صبروا، وما يلقاها؛ أي: يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظٍّ عظيم.

وعلىٰ كل تقدير فقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾أي: مشقة ثقيلة إلا علىٰ الخاشعين.

وهذا يشبه ما جاء في الحديث: لقد (**سألتَ عن عظيم، وإنه ليسير علىٰ من يَسَّره الله عليه**)[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله؛ أي: إن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا علىٰ الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم؛ أي: يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه.

﴿وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: أمورهم راجعة إلىٰ مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله؛ فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات، وترك المنكرات.

فأما قوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: العرب قد تُسمّي اليقين ظنًّا، والشك ظنًّا، نظير تسميتهم الظلمة سُدفةً، والضياء سدفةً، والمغيث صارخًا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمىٰ بها الشيء وضده؛ كما قال دُريد بن الصمة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألفي مدجَّجٍ   سراتهم في الفارسي المُسَرّدِ

يعني بذلك: تيقنوا بألفي مدجج يأتيكم.

قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها علىٰ أن الظن في معنىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٢٦١٦) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح.

اليقين أكثر من أن تحصر، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَرَأَىٰ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾.

قال ابن جُريج: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي علِموا أنهم ملاقو ربهم؛ كقوله: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ يقول: علمتُ.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يذكِّرهم تعالىٰ بسالف نِعَمِه علىٰ آبائهم وأسلافهم، وما كان فضَّلهم به من إرسال الرسل منهم، وإنزال الكتب عليهم وعلىٰ سائر الأمم من أهل زمانهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

قال أبو العالية ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي بما أُعطوا من المُلْك والرسل والكتب، فُضِّلوا علىٰ عالَم مَنْ كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالَمًا.

ويجب الحمل علىٰ هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم؛ لقوله تعالىٰ خطابًا لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.

وفي المسند والسنن[1] عن معاوية بن حيدة القشيري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **(أنتم توفون سبعين أمةً أنتم خيرها وأكرمها علىٰ الله)**.

والأحاديث في هذا كثيرة تُذْكَر عند قوله تعالىٰ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

لمَّا ذكَّرهم تعالىٰ بنِعَمه أولاً عطف علىٰ ذلك التحذير من حلول نِقَمه بهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يُغْني أحدٌ عن أحد؛ كما قال: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ وقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ يعني: عن الكافرين؛ كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٧)، والترمذي (٣٠٠١)، وحسنه، وابن ماجه (٤٢٨٧).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: لا يُقْبَل منها فداء، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ﴾.

فأخبر تعالىٰ أنهم إن لم يؤمنوا برسوله، ويُتابعوه علىٰ ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة علىٰ ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يُقْبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبًا؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وقال: لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء؛ هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ أي: إنه تعالىٰ لا يقبل فيمن كفر به فديةً ولا شفاعةً، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجيره منه أحد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ

يُجَارُ عَلَيْهِ﴾. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ وقال: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ وقال: ﴿فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دونِ اللهِ قُرْبَانـًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع، ولا يُقْبل منهم عدل ولا فدية؛ بطلت هنالك المحاباة، واضمحلَّت الشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلىٰ العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء؛ فيجزىٰ بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها. وذلك نظير قوله تعالىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

قلت: وقد بسطتُ الكلام علىٰ الأحاديث المتواترة في الشفاعة وأقسامها وتعدادها وأنواعها في كتابنا «كتاب البعث والنشور» ولله الحمد والمِنَّة.

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

آل الرجل من ينتسب إليه بنسب أو سبب؛ وقيل: هم أتباعه وأشياعه؛ وقيل: من هو علىٰ دينه ومِلَّته، وقد يُطْلق علىٰ الرجل نفسه.

يقول الله تبارك وتعالىٰ: اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون؛ أي: خلصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسىٰ عليه السلام؛ وقد كانوا يسومونكم؛ أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب؛ وذلك أن فرعون -لعنه الله- كان قد رأىٰ رؤيا هالته: رأىٰ ناراً خرجت من بيت المقدس، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بني إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون علىٰ يدي رجل من بني إسرائيل.

فعند ذلك أمر فرعون -لعنه الله- بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تُترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها.

ومعنىٰ يسومونكم: يولّونكم؛ قاله أبو عبيدة، كما يقال: سامَهُ خطة خسف؛ إذ أولاه إياها، وقيل: معناه يديمون عذابكم، كما يقال: سائمة الغنم؛ من إدامتها الرعي؛ نقله القرطبي.

وفرعون: عَلَمٌ علىٰ كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم، كما أن قيصر عَلَمٌ علىٰ كل من ملك الروم مع الشام كافراً، وكسرىٰ لمن ملك الفرس، وتُبَّع لمن ملك اليمن كافراً، والنجاشي لمن ملك الحبشة،

وبطليموس لمن ملك الهند.

ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمان موسىٰ عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان، وقيل: مصعب بن الريان، وأيـًا ما كان، فعليه لعنة الله!

وقوله تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون، بلاء لكم من ربكم عظيم؛ أي: نعمة عظيمة عليكم في ذلك.

وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ وقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشرِّ، بلوتُه أبلوه بلاء، وفي الخير أبليه إبلاءً وبلاءً؛ قال زهير بن أبي سُلمىٰ:

جزىٰ الله بالإحسان ما فعلا بكمْ وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أنه إشارة إلىٰ ما كانوا فيه من العذاب المهين، من ذبح الأبناء، واستحياء النساء. قال القرطبي: وهذا قول الجمهور.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسىٰ عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم، ففَرَقْنا بكم البحر؛ كما أخبر تعالىٰ عن ذلك مفصلاً، كما سيأتي في مواضعه، ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ أي: خلَّصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشفىٰ لصدوركم، وأبلغ في إهانة عدوكم.

وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: قدم رسول الله ﷺ المدينة، فرأىٰ اليهود يصومون يوم عاشوراء؛ فقال: ما هذا اليوم الذي تصومون؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّىٰ الله عزّ وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسىٰ عليه السلام؛ فقال رسول الله ﷺ : (**إنَّا أحق بموسىٰ منكم**) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه. رواه البخاري ومسلم[1].

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٢٦).

تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسىٰ لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يومـًا، وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ قيل إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة؛ وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون، وإنجائهم من البحر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدىٰ والضلال لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وكان ذلك أيضـًا بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف؛ ولقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

هذه صفة توبته تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل من عبادة العجل.

قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع، حين قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قال: فذلك حين يقول موسىٰ ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: إلىٰ خالقكم.

قلت: وفي قوله ها هنا: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ تنبيهٌ علىٰ عظم جرمهم؛ أي: فتوبوا إلىٰ الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق؛ إذ سألتم رؤيتي جهرةً عيانـًا مما لا يستطاع لكم، ولا لأمثالكم.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿جَهْرَةً﴾ أي علانية.

قال السُّدِّي: فماتوا فقام موسىٰ يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا

أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلكتَ خيارهم؟ ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ: إن هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجل؛ ثم إن الله أحياهم، فقاموا ينظر بعضهم إلىٰ بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾

لمَّا ذكر تعالىٰ ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضـًا بما أسبغ عليهم من النعم فقال: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾ وهو جمع غمامة، سُمِّي بذلك لأنه يغم السماء؛ أي: يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المنِّ ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المَنُّ ينزل عليهم علىٰ الأشجار، فيغدون إليه، فيأكلون منه ما شاءوا.

وقال قتادة: كان المن ينزل عليهم في محلتهم سقوط الثلج، أشد بياضـًا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلىٰ

طلوع الشمس، يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك.

وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه. وقال وهب بن منبه: خبز الرقاق.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن؛ فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب.

والظاهر -والله أعلم- أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب، وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد؛ فالمن المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوةً، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر؛ ولكن ليس هو المراد من الآية وحده.

والدليل علىٰ ذلك قول النبي ﷺ : **(الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين)** رواه البخاري ومسلم[1].

وأما السلوىٰ فقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: السلوىٰ: طائر شبيه بالسماني؛ كانوا يأكلون منه.

قال ابن عطية: السلوىٰ طير بإجماع المفسرين؛ وقد غلط الهذلي في قوله: إنه العسل، وأنشد في ذلك مستشهداً:

وقاسمها بالله جهداً لأنتم ألذ من السلوىٰ إذا ما أشورها

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٨)، ومسلم (٢٠٤٩).

قال: فظن أن السلوىٰ عسلاً.

قال القرطبي: دعوىٰ الإجماع لا تصح؛ لأن المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال: إنه العسل؛ واستدل ببيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة لأنه يسلىٰ به.

وقوله تعالىٰ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ فخالفوا وكفروا، فظلموا أنفسهم؛ هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات.

ومن ها هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم، علىٰ سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً علىٰ الرسول ﷺ ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤُوا كل وعاء معهم. وكذا لما احتاجوا إلىٰ الماء سأل الله تعالىٰ، فجاءت سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل، وملأوا أسقيتهم، ثم نظروا فإذا هي لم

تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل في الاتباع: المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

يقول تعالىٰ لائمـًا لهم علىٰ نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدَّسة لمَّا قدِموا من بلاد مصر صُحْبَةَ موسىٰ عليه السلام؛ فأُمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم، وضعفوا واستحسروا؛ فرماهم الله تعالىٰ في التيه عقوبةً لهم، كما ذكره تعالىٰ في سورة المائدة.

ولهذا كان أصح القولين أنَّ هذه البلدة هي بيت المقدس، كما نص علىٰ ذلك السُدِّىٰ وقتادة وغير واحد. وقد قال الله تعالىٰ حاكيـًا عن موسىٰ: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾.

وكان هذا لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنةً مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حُبِستْ لهم الشمس يومئذ

قليلاً حتىٰ أمكن الفتح.

ولما فتحوها أُمروا أن يدخلوا الباب، باب البلد، سُجَّدًا أي: شكراً لله تعالىٰ علىٰ ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم عليهم، وإنقاذهم من التيه والضلال.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما إنه كان يقول في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ أي: رُكَّعـًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: استغفروا.

وقال الحسن وقتادة: أي: احطط عنا خطايانا.

﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا جواب الأمر؛ أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر: أنهم أُمروا أن يخضعوا لله تعالىٰ عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم، ويستغفروا منها، والشكر علىٰ النعمة عندها، والمبادرة إلىٰ ذلك من المحبوب لله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس رضي الله عنهما بأنه نعىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره علىٰ ذلك

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولا منافاة بين أن يكون قد أُمر بذلك عند ذلك، ونُعيت إليه روحه الكريمة أيضـًا؛ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر؛ كما رُوي أنه كان يوم فتح المكة داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنه لخاضع لربه حتىٰ إن عثنونه ليَمَسُّ مورك رحله يشكر الله علىٰ ذلك. ثم لما دخل البلد اغتسل وصلىٰ ثماني ركعات؛ وذلك ضحىٰ.

وقد تكلم القرطبي ها هنا علىٰ مسألة رواية الحديث بالمعنىٰ، وأطال الكلام فيها، وحكىٰ عن الجمهور وعن محمد بن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حيوة المنع، واختار ابن العربي المالكي أن ذلك يجوز في زمن الصحابة والتابعين لعلمهم باللغة، وقدرتهم علىٰ المطابقة، وأما من بعدهم فلا يجوز وقد أنكر بعض العلماء علىٰ ابن العربي التفرقة والله أعلم.

قال وكيع: إن لم تكن الرواية بالمعنىٰ فقد هلك الناس. وصدق وكيع.

وقال الحسن البصري: إذا أصبتَ المعنىٰ أجزأك.

وقال قتادة عن زرارة: لقيت عدةً من الصحابة، فاختلفوا علي في اللفظ، واجتمعوا في المعنىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾:

روىٰ البخاري ومسلم[1] عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: **(قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون علىٰ أستاههم، فبدلوا وقالوا حبة في شعرة)**.

وحاصل ما ذكره المفسِّرون، وما دلَّ عليه السياق من الحديث أنهم بدَّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأُمِروا أن يدخلوا سُجَّداً، فدخلوا يزحفون علىٰ أستاههم رافعي رؤوسهم، وأُمروا أن يقولوا حِطَّة؛ أي: احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزأوا فقالوا: حنطة في شعرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم؛ وهو خروجهم عن طاعته، ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: كل شيء في كتاب الله من الرِجْز يعني به العذاب.

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنًاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ ﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسىٰ عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٩)، ومسلم (٣٠١٥).

السلام حين استسقاني لكم، وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يُحْمل معكم، وتفجير الماء لكم منه من ثنتي عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوىٰ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعىٰ منكم ولا كد، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتُسْلَبوها.

وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالىٰ يقص علىٰ رسوله ﷺ ما فعل بهم.

وأما في هذه السورة وهي البقرة فهي مدنية؛ فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم، وأخبر هناك بقوله: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ وهو أول الانفجار، وأخبر ها هنا بما آل إليه الحال آخراً، وهو الانفجار؛ فناسب ذكر هذا ها هنا وذاك هناك. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوىٰ طعامًا طيبًا نافعًا، هنيئًا سهلاً؛ واذكروا ضجركم مما رزقناكم، وسؤالكم موسىٰ استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم.

قال الحسن البصري: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبُقُول وفوم؛ فقالوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾، وإنما قالوا علىٰ طعام واحد، وهم يأكلون المن والسلوىٰ؛ لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم؛ فهو مأكل واحد.

والبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة، وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه؛ فوقع في قراءة ابن مسعود: وثومها بالثاء، وكذا فسره مجاهد بالثوم في رواية ليث بن أبي سليم عنه.

وقال آخرون: الفوم: الحنطة، وهو البُرُّ الذي يُعْمَل منه الخبز.

روىٰ ابن أبي حاتم أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سُئِلَ عن قول الله: ﴿وَفُومِهَا﴾ ما فومها؟ قال: الحنطة. ثم قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح، وهو يقول:

قد كنتُ أغنىٰ الناس شخصـًا واحدا ورد المدينة عن زراعة فومِ

وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: الفوم الحنطة بلسان بني هاشم.

وقال بعضهم: هو الحمص، لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فاميٌّ مُغَيَّر عن فومي.

قال البخاري: وقال بعضهم: الحبوبُ التي تؤكل كلها فوم.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فيه تقريع لهم، وتوبيخ علىٰ ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ الحق في ذلك أن المراد مصر من الأمصار، كما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره، لأن موسىٰ عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز؛ بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه.

ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر، ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه. والله أعلم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ٦١﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أي: وُضِعتْ عليهم، وألزموا بها شرعـًا وقدراً؛ أي: لا يزالون مستذلين؛ من وجدهم استذلهم، وأهانهم، وضرب عليهم الصغار؛ وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله.

قال ابن جرير: يعني انصرفوا ورجعوا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يعني: تنصرف متحمِّلهما، وترجع بهما قد صارا عليك دوني.

فمعنىٰ الكلام: رجعوا منصرفينَ متحملينَ غضبَ الله، قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وفي قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يقول تعالىٰ: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم؛ فانتقصوهم إلىٰ أن أفضىٰ بهم الحال إلىٰ أن قتلوهم، فلا كبر أعظم من هذا؛ إنهم كفروا بآيات الله،

وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء في الحديث المتفق علىٰ صحته[1] أن رسول الله ﷺ قال: (**الكبر بطر الحق وغمط الناس**).

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ هذه علة أخرىٰ في مجازاتهم بما جُوْزوا به؛ أنهم كانوا يعصون ويعتدون؛ فالعصيان: فعل المناهي، والاعتداء: المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به. والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما بيَّن تعالىٰ حال من خالف أوامره، وارتكب زواجره، وتعدىٰ في فعل ما لا إذن فيه، وانتهك المحارم؛ وما أحل بهم من النكال، نبَّه تعالىٰ علىٰ أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاءً الحُسنىٰ.

وكذلك الأمر إلىٰ قيام الساعة: كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون علىٰ ما يتركونه ويخلفونه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: إِنَّ

---

(١) هذا الحديث رواه مسلم (٩١)، وليس في الصحيحين كما ذكر المصنِّف رحمه الله.

الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قال السُدِّي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ نزلت في أصحاب سلمان الفارسي؛ بينا هو يُحدِّث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم؛ فقال: كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبيـًا. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله ﷺ: يا سلمان؛ هم من أهل النار؛ فاشتد ذلك علىٰ سلمان؛ فأنزل الله هذه الآية؛ فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسىٰ عليه السلام حتىٰ جاء عيسىٰ؛ فلما جاء عيسىٰ كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسىٰ فلم يَدَعْها ولم يتبع عيسىٰ كان هالكـًا. وإيمان النصارىٰ أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسىٰ كان مؤمنـًا مقبولاً منه حتىٰ جاء محمد ﷺ فمن لم يتّبع محمداً ﷺ منهم ويَدَعَ ما كان عليه من سُنَّة عيسىٰ والإنجيل كان هالكـًا.

واليهود: من الهوادة وهي المودة، أو التهوَّد وهي التوبة؛ كقول موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا؛ فكأنهم سُمُّوا بذلك في الأصل لتوبتهم ومودَّتهم بعضهم لبعض.

وقيل: لنسبتهم إلىٰ يهودا أكبر أولاد يعقوب.

وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهوَّدون؛ أي: يتحركون عند قراءة التوراة.

فلما بُعِثَ عيسىٰ ﷺ وجب علىٰ بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارىٰ، وسُمُّوا بذلك لتناصرهم فيما بينهم. وقد يقال لهم أنصار أيضـًا، كما قال عيسىٰ عليه السلام: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَىٰ اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾.

وقيل: إنهم سُمُّوا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضـًا يقال لها: ناصرة. قاله قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضـًا. والله أعلم.

والنصارىٰ: جمع نصران؛ كنشاوىٰ جمع نشوان، وسكارىٰ جمع سكران؛ ويقال للمرأة: نصرانة؛ قال الشاعر:

نصرانة لم تحنَّفِ

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتمـًا للنبيين، ورسولاً إلىٰ بني آدم علىٰ الإطلاق، ووجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر؛ وهؤلاء هم المؤمنون حقـًا.

وسُمِّيت أمة محمد ﷺ مؤمنين، لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

وأما الصابئون فقد اختُلف فيهم؛ فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارىٰ. وقال أبو العالية، والسُدِّي، والضحاك، وإسحاق بن راهويه: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤن الزبور.

وسُئِل وهب بن منبه عن الصابئين؛ فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يُحْدِث كفراً.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون: أهلُ دينٍ من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله. قال: ولم يؤمنوا برسول؛ فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم؛ يعني: في قول: لا إله إلا الله.

وأظهر الأقوال -والله أعلم- قول مجاهد، ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا علىٰ دين اليهود ولا النصارىٰ ولا المجوس ولا المشركين؛ وإنما هم قوم باقون علىٰ فطرتهم، ولا دين لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ؛ أي: قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي. والله أعلم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم

﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤﴾

يقول تعالىٰ، مذكِّراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتِّباع رسله؛ وأخبر تعالىٰ أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم، ليُقِرُّوا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتثال؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. فالطور: هو الجبل كما فُسِّر بآية الأعراف ونص علىٰ ذلك ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وهذا ظاهر.

قال الحسن في قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ يعني: التوراة.

وقال أبو العالية والربيع بن أنس: ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أي: بطاعة.

وقال مجاهد: ﴿بِقُوَّةٖ﴾: أي بعمل بما فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ يقول تعالىٰ: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه، وأنثنيتم، ونقضتموه ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ أي: بتوبته عليكم، وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يقول تعالىٰ: ولقد علمتم يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام، بأمره؛ إذ كان مشروعـًا لهم؛ فتحيلوا علىٰ اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوه لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت؛ فلما جاءت يوم السبت علىٰ عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك؛ فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت؛ فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلىٰ صورة القردة، وهي أشبه شيءٍ بالأناسي في الشكل الظاهر، وليست بإنسان حقيقةً؛ فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهةً للحق في الظاهر، ومخالفةً له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم.

وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

قال السُّدِّي: أهل هذه القرية هم أهل أيلة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

قال مجاهد: مُسِخَتْ قلوبهم، ولم يمسخوا قردة؛ وإنما هو مثل ضربه الله (كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا) رواه ابن جرير عن المثنىٰ عن أبي حذيفة عن أبي عاصم عن عيسىٰ عن ابن أبي نجيح عن مجاهد. وهذا سندٌ جيدٌ عن مجاهد، وقولٌ غريبٌ خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية.

قال العوفي في تفسيره، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، فجعل الله منهم القردة والخنازير؛ فزعم أن شباب القوم صاروا قردةً، وأن المشيخة صاروا خنازير.

وقال الضحاك، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فمسخهم الله قردةً بمعصيتهم؛ يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثةً أيام. قال: ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب، ولم ينسل.

قال أبو العالية: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يعني أذلةً صاغرين.

قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد -رحمه الله- من أن مسخهم إنما كان معنويًا لا

صوريـًا؛ بل الصحيح أنه معنوي صوري. والله تعالىٰ أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ قال بعضهم: الضمير في (فجعلناها) عائد علىٰ القردة، وقيل: علىٰ الحيتان، وقيل: علىٰ العقوبة، وقيل: علىٰ القرية. حكاها ابن جرير.

والصحيح أن الضمير عائد علىٰ القرية؛ أي: فجعل الله هذه القرية -والمراد أهلها- بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالًا ﴾ أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها عبرة؛ كما قال الله علىٰ فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي: من القرىٰ.

قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرةً لما حولها من القرىٰ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فالمراد: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ في المكان، كما قال ابن عباس: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ﴾ من القرىٰ ﴿وَمَا خَلْفَهَا ﴾ من القرىٰ.

وكذا قال سعيد بن جبير: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ قال: من بحضرتها من الناس يومئذٍ.

وقال أبو العالية: ﴿وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي: لمن بقي بعدهم من الناس من

بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم، وكأن هؤلاء يقولون: المراد ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ في الزمان.

وهذا مستقيم بالنسبة إلىٰ من يأتي بعدهم من الناس، أن يكون أهل تلك القرية عبرةً لهم، وأما بالنسبة إلىٰ من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به؛ وهو أن يكون عبرةً لمن سبقهم؟

وهذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره؛ فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان؛ وهو ما حولها من القرىٰ؛ كما قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير. والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الذين من بعدهم إلىٰ يوم القيامة.

قلت: المراد بالموعظة ها هنا الزاجر؛ أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل؛ فليحذر المتَّقون صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم؛ كما روىٰ الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنىٰ الحيل**) وهذا إسناد جيد[1].

(١) وذكره ابن تيمية في الفتاوىٰ (٣/ ٤، ٢٨٧)، وحسَّنه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول ونَصِّه علىٰ من قتله منهم.

ذِكْرُ بَسْطِ القِصَّة:

عن عَبِيْدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله؛ ثم احتمله ليلاً فوضعه علىٰ باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتىٰ تسلحوا وركب بعضهم علىٰ بعض.

فقال ذوو الرأي منهم والنُّهَىٰ: علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسىٰ عليه السلام، فذكروا ذلك له؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنىٰ بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، حتىٰ انتهوا إلىٰ البقرة التي أُمِروا بذبحها، فوجودها عند رجل ليس له بقرة غيرها؛ فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً. فأخذوها بملء جلدها ذهباً، فذبحوها، فضربوه ببعضها، فقام، فقالوا:

من قتلك؟ فقال: هذا -لابن أخيه- ثم مال ميتـًا؛ فلم يُعْطَ من ماله شيئـًا، فلم يورَّثْ قاتلٌ بعد.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ﴾ يعني: لا هرمة ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾ يعني: ولا صغيرة ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نصف بين البكر والهرمة.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ أي: صافٍ لونها ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: تعجب الناظرين.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ أي: لم يُذلِّلها العمل ﴿تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يعني: وليست بذلول تثير الأرض ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ يعني: ولا تعمل في الحرث ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ يعني: مسلَّمةٌ من العيوب؛ ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ يقول: لا بياض فيها ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

واشتروها فذبحوها؛ فأمرهم موسىٰ عليه السلام أن يأخذوا عظمـًا منها فيضربوا به القتيل؛ ففعلوا؛ فرجع إليه روحه، فسمىٰ لهم قاتله ثم عاد ميتـًا كما كان. فأُخذ قاتله، فقتله الله علىٰ أسوأ عمله.

فائدة:

تقول العرب: أصفر فاقع، وأبيض يقق وناصع ولهق ولهاق، وأخضر ناضر، وأحمر قانٍ، وأسود حالك وحلكوك، ودجوجي، وغربيب، وأزرق ولم أسمع أنهم أكدوه بشيء كغيره من بقية الألوان المذكورة وهي ستة، ولا زائد عليها إلا ما يُرَكَّب منها. والله أعلم.

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

أخبر تعالىٰ عن تعنُّت بني إسرائيل، وكثرة سؤالهم لرسولهم؛ ولهذا لما ضيَّقوا علىٰ أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، ولكنهم شددوا فشدد عليهم؛ فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ أي: ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ أي: لكثرتها؛ فميِّزْ لنا هذه البقرة وصِفْها وجَلِّها لنا ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إذا بينتها لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: إنها ليست مُذلَّلةً بالحراثة، ولا مُعدَّةً للسقي في السانية؛ بل هي مكرمة حسناء صبيحة مسلَّمة أي لا عيب فيها.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: ليس فيها لون غير لونها.

﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال قتادة: الآن بيَّنت لنا.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ يعني: أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد. وفي هذا ذم لهم؛ وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت؛ فلهذا ما كادوا يذبحونها.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قال البخاري: ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخرق العادة به كائن؛ ولو كان في تعيينه لنا

فائدة تعود لنا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالىٰ لنا، ولكنه أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه؛ فنحن نُبْهِمُه كما أبهمه الله.

وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي: فضربوه فحَيِيَ.

ونبَّه تعالىٰ علىٰ قدرته وإحيائه الموتىٰ بما شاهدوه من أمر القتيل؛ وجعل تبارك وتعالىٰ ذلك الصنيع حجةً لهم علىٰ المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد.

والله تعالىٰ قد ذكر في هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتىٰ في خمسة مواضع: في قوله ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وفي هذه القصة، وفي قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وفي قصة الذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، وفي قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة.

ونبَّه الله تعالىٰ بإحياء الأرض بعد موتها علىٰ إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميماً.

﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾

يقول تعالىٰ توبيخـًا لبني إسرائيل، وتقريعـًا لهم علىٰ ما شاهدوه من آيات الله تعالىٰ وإحيائه الموتىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ﴾ التي لا تلين أبداً.

ولهذا نهىٰ الله المؤمنين عن مثل حالهم؛ فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات؛ فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوةً من الحجارة؛ فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون الجارية بالأنهار ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريـًا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراكٌ لذلك بحسبه؛ كما قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: كالعيون السارحة المشاهدة، تخرج من الأحجار عيانـًا ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ كحجر موسىٰ الذي كان إذا ضربه نبع منه اثنا عشرة

عيناً بإذن الله في ذلك ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رؤوس شواهق الجبال، وهذا كقوله: أُحُدٌ جبلٌ يحبنا ونحبه.

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلىٰ الحجارة، كما أُسندت الإرادة إلىٰ الجدار في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ قال فخر الدين الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة: ولا حاجة إلىٰ هذا؛ فإن الله تعالىٰ يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾ وقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ...﴾ الآية ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ وقال ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ..﴾ وقال ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ .

وفي الصحيح[1]: **(أُحُد جبلٌ يحبنا ونحبه)** وكحنين الجذع المتواتر خبره.

وفي صحيح مسلم[2]: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يُسلِّم عليّ قبل أن أُبْعث، إني لأعرفه الآن).

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٩)، ومسلم (١٣٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).

وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة.

وغير ذلك مما في معناه.

﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أي أفتطمعون أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: ينقاد لكم بالطاعة؟ هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يتأولونه علىٰ غير تأويله، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ أي: فهموه علىٰ الجلية، ومع هذا يخالفونه علىٰ بصيرة، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله.

وهذا المقام شبيهٌ بقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

قال السُّدِّي: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: هي التوراة حرفوها.

وقال أبو العالية: عمدوا إلىٰ ما أنزل الله في نَصِّ كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه.

وقال السُّدِّي ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم يعلمون أنهم أذنبوا.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها؛ يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرامَ فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقًا، إذا جاءهم المحق برشوةٍ أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوةٍ أخرجوا له ذلك الكتاب؛ فهو فيه محق. وإن جاء أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق؛ فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي: بصاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة؛ وإذا خلا بعضهم إلىٰ بعض قالوا: لا تحدثوا العرب بهذا؛ فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم.

فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ

﴿بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تقرون بأنه نبي؛ وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر، ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به؛ يقول الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وقال أبو العالية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قال أبو العالية: يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ، وتكذيبهم به، وهم يجدونه مكتوبـًا عندهم.

وقال الحسن: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ قال: كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ، وخلا بعضهم إلىٰ بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم خشية أن يحاجَّهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يعني: حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ: آمنا.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا

﴿كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾

الأُمِّيون: جمع أُمِّي، وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة؛ قاله أبو العالية وقتادة وغير واحد؛ وهو ظاهر في قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أي: لا يدرون ما فيه.

ولهذا في صفات النبي ﷺ : أنه الأمي؛ لأنه لم يكن يُحْسن الكتابة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: (إنَّا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب) أي: لا نفتقر في عباداتنا ومواقيتها إلىٰ كتاب ولا حساب.

وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ قال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلىٰ أُمِّهِ في جهله بالكتاب دون أبيه.

قال: وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قولٌ خلافَ هذا، قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم؛ ثم قالوا لقومٍ سفلةٍ جهال: هذا من عند الله.

وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله.

ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل تأويل علىٰ خلاف ما يُعْرف

من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أن الأميَّ عند العرب الذي لا يكتب.

قلت: ثم في صحة هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نظر، والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي إلا أحاديث. وقال الضحاك، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ يقول: إلا قولاً كذبًا يقولونه بأفواههم.

قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس.

وقيل: المراد بقوله: إلا أماني بالتشديد والتخفيف أيضًا؛ أي: إلا تلاوةً؛ فعلىٰ هذا يكون استثناءً منقطعًا؛ واستشهدوا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: (إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ) أي: تلا (أَلْقَىٰ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ).

وقال كعب بن مالك الشاعر:

تمنىٰ كتاب الله أول ليله وآخره لاقىٰ حمام المقادر

قال مجاهد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي يكذبون.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الآية: هؤلاء صِنْفٌ آخر من اليهود، وهم الدعاة إلىٰ الضلال بالزور والكذب علىٰ الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار؛ وهي كلمة مشهورة في اللغة.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الويل: المشقة من العذاب.

وقال الخليل بن أحمد: الويل شدة الشر.

وقال سيبويه: ويل: لمن وقع في الهلكة، وويح: لمن أشرف عليها.

وقال الأصمعي: الويل: تفجُّع. والويح: ترحُّم.

وقال الخليل: وفي معنىٰ ويل: ويح وويس وويه وويك وويت. ومنهم من فرق بينها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ قال: هم أحبار اليهود.

وقال السُدِّي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذوا به ثمنًا قليلاً.

قال الحسن البصري: الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ أي: فويلٌ لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويلٌ لهم مما أكلوا به من السُحْت.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ

﴿ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾

يقول تعالىٰ إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم؛ من أنهم لن تمسَّهم النار إلا أيامـًا معدودةً ثم ينجون منها؛ فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا﴾ أي: بذلك؛ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف وعده ولكن هذا ما جرىٰ ولا كان؛ ولهذا أتىٰ بـ أم التي بمعنىٰ بل؛ أي: بل تقولون علىٰ الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

وروىٰ الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: لما فُتحت خيبر أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُم؛ فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان من اليهود ها هنا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان. قال: كذبتم، بل أبوكم فلان. فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبداً.

ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سمـًا؟ فقالوا: نعم. قال: فما حملكم علىٰ ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذبـًا أن نستريح

منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. ورواه البخاري من حديث الليث بن سعدٍ بنحوه[1].

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون؛ بل الأمر أنه من عمل سيئةً وأحاطت به خطيئته، وهو من وافىٰ يوم القيامة وليست له حسنة؛ بل جميع أعماله سيئات؛ فهذا من أهل النار. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من العمل الموافق للشريعة، فهم من أهل الجنة.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ونذكر ها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن علىٰ الرجل حتىٰ يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً**

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٩).

كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيءُ بالعود حتىٰ جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها)[1].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: من آمن بما كفرتم، وعَمِل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها؛ يخبرهم أن الثواب بالخير، والشر مقيم علىٰ أهله أبداً لا انقطاع له.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالىٰ بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم علىٰ ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه؛ فأمرهم تعالىٰ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا؛ وبهذا أمر جميع خلقه؛ ولذلك خلقهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وقال تعالىٰ:

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٢)، وصحح إسناده الألباني كما في الصحيحة (٣٨٩).

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

وهذا هو أعلىٰ الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالىٰ أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين؛ وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين؛ ولهذا يقرن الله تبارك وتعالىٰ بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانـًا..﴾ إلىٰ أن قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

وفي الصحيحين(١) عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله؛ أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة علىٰ وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. ولهذا جاء في الحديث الصحيح(٢) أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك؛ ثم أدناك، أدناك.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال الزمخشري: خبر بمعنىٰ الطلب، وهو آكد.

قال: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ وهم الصِغار الذين لا كاسب لهم من الآباء.

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٢٧)، ومسلم (٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧)، وحسَّنه.

وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، وفي البهائم من الأم، وحكىٰ الماوردي أن اليتيم مطلقٌ في بني آدم من الأم أيضـًا والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون علىٰ أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام علىٰ هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالىٰ بها صريحـًا في قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانـًا..﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: كلِّموهم طيبـًا، ولينوا لهم جانبـًا؛ ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف؛ كما قال الحسن البصري في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فالحسن من القول: تأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المنكر، وتحلم وتعفو وتصفح، وتقول للناس حسنـًا كما قال الله؛ وهو كل خلق حسن رَضِيَهُ الله.

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (**لا تحقرن من المعروف شيئـًا، وإن لم تجد فالْق أخاك بوجه طلق**) أخرجه مسلمٌ في صحيحه[1].

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنـًا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل؛ فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٦).

ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلىٰ الناس بالمتعيِّن من ذلك، وهو الصلاة والزكاة؛ فقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله؛ أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه علىٰ عمد بعد العلم به إلا القليل منهم.

وقد أمر الله تعالىٰ هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلهاولله الحمد والمنة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

يقول الله تبارك و تعالىٰ منكراً علىٰ اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج؛ وذلك أن الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانوا في الجاهلية عُبَّاد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابه، ويُخرجونهم من بيوتهم، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكُّوا الأسارىٰ من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يُخرجه من منزله، ولا يُظاهر عليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا

اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالحمىٰ والسَّهر.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته، وأنتم تشهدون به.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرَّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداءَ أسراهم؛ فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وأنهم حلفاء الخزرج والنضير؛ وقريظة وأنهم حلفاء الأوس؛ فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس؛ يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه علىٰ إخوانه، حتىٰ يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنةً ولا ناراً، ولا بعثًا ولا قيامةً، ولا كتابًا، ولا حلالاً، ولا حرامًا؛ فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم، تصديقًا لما في التوراة، وأخذاً به؛ بعضهم من بعض، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم، فيما بينهم مظاهرةً لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالىٰ ذكره حين أنبأهم بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ

﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ أي: تُفادونهم بحكم التوراة. وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يفعل، ويخرجه من داره، ويظاهر عليه من يشرك بالله، ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة.

والذي أرشدت إليه الآية الكريمة: ذمُّ اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك، وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون علىٰ ما فيها، ولا علىٰ نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه، ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام.

واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ جزاءً علىٰ ما كتموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: استحبوها علىٰ الآخرة واختاروها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: لا يُفتَّر عنهم ساعةً واحدةً ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ينعت تبارك وتعالىٰ بني إسرائيل بالعتو والعناد، والمخالفة والاستكبار علىٰ الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم؛ فذكر تعالىٰ أنه آتىٰ موسىٰ الكتاب، وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ..﴾ الآية.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ قال السُدِّي عن أبي مالك: أتْبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ حتىٰ ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسىٰ ابن مريم عليه السلام، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام؛ ولهذا أعطاه الله من البينات -وهي المعجزات- من إحياء الموتىٰ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، والتأييد بروح القدس -وهو جبريل عليه السلام- ما يدلهم علىٰ صدقه

فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له، وحسدهم وعنادهم، لمخالفة التوراة في البعض؛ كما قال تعالىٰ إخباراً عن عيسىٰ: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة؛ ففريقًا يكذبون وفريقًا يكذبونه ويقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبإلزامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان ذلك يشق عليهم فيكذبونهم؛ وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾.

وهذه الآية دليل علىٰ أن روح القدس هو جبريل مع قوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

في البخاري تعليقًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: **(اللهمَّ أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيِّه)**.

وفي الصحيحين[1] أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه؛ فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

منك، ثم التفت إلىٰ أبي هريرة، فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس: فقال: اللهم نعم.

وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان رضي الله عنه: **(اهجهم وجبريل معك)**[1].

وفي شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

أقوالٌ أُخَر:

روىٰ ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال:

هو الاسم الأعظم الذي كان عيسىٰ يحيي به الموتىٰ.

وقال ابن زيد: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أيَّد الله عيسىٰ بالإنجيل روحًا كما جعل القرآن روحًا، كلاهما روح الله.

قال ابن جرير: وأولىٰ التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبرائيل؛ فإن الله تعالىٰ أخبر أنه أيد عيسىٰ به، كما أخبر في قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٣)، ومسلم (٢٤٨٦).

وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾ فذكر أنه أيده به؛ فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل لكان قوله: إذ أيدتك بروح القدس، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، تكريرَ قولٍ لا معنىٰ له، والله سبحانه وتعالىٰ أعزُّ وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به.

وقال الزمخشري في قوله تعالىٰ: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنما لم يقل وفريقًا قتلتم؛ لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضًا؛ لأنهم حاولوا قتل النبي محمد ﷺ بالسم والسحر. وقد قال عليه السلام في مرض موته: (**ما زالت أُكلة خيبر تعادني، فهذا أوان انقطاع أبهري**).

قلت: وهذا الحديث في صحيح البخاري[1] وغيره.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا تفقه.

وقال عكرمة: عليها طابع.

وقال السُدِّي: يقولون قلوبنا عليها غلاف وهو الغطاء.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٨).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿غُلْفٌ﴾ قال: تقول قلبي في غلاف، فلا يخلص إليه ما تقول، وقرأ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾. وهذا هو الذي رجحه ابن جرير.

﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليس الأمر كما ادَّعوا، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها؛ كما قال في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وقد اختلفوا في معنىٰ قوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فقال بعضهم: قليلٌ من يؤمن منهم.

وقيل: فقليلٌ إيمانهم، بمعنىٰ: أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسىٰ من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم؛ لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ يعني: اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الذي أُنزل علىٰ محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ يعني: من التوراة.

روىٰ ابن إسحاق عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن اليهود كانوا يستفتحون علىٰ الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ، ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم؛ فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: يستنصرون بخروج محمد ﷺ علىٰ مشركي العرب؛ يعني: بذلك أهل الكتاب، فلما بعث محمد ﷺ ، ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

قال السُدِّي: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم؛ يعني بئسما اعتاضوا لأنفسهم، ورضوا به، وعدلوا إليه من الكفر

بما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته؛ وإنما حملهم علىٰ ذلك البغي والحسد والكراهية لـ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ أي: إن الله جعله من غيرهم.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ﴾ معنىٰ باءوا: استوجبوا واستحقوا.

﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖ﴾ قال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسىٰ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن.

وقال السُدِّي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العِجْل، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِين﴾ أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ

تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ﴾ أي: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب: ﴿ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: علىٰ محمد ﷺ، وصدِّقوه واتبِعوه، ﴿قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ أي: يكفينا الإيمان بما أُنزل علينا من التوراة والإنجيل، ولا نُقِرُّ إلا بذلك ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ يعني: بما بعده ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ أي: وهم يعلمون أن ما أنزل علىٰ محمد ﷺ الحق، فالحجة قائمة عليهم بذلك؛ كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً علىٰ رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي: اتخذتم العِجل معبوداً من دون الله في

زمان موسىٰ وأيامه.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: من بعد ما ذهب عنكم إلىٰ الطور لمناجاة الله عزَّ وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾.

﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾

يُعَدِّد تبارك وتعالىٰ عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم، وإعراضهم عنه، حتىٰ رفع الطور عليهم حتىٰ قبلوه؛ ثم خالفوه؛ ولهذا قال: ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾.

﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ قال قتادة: أُشربوا في قلوبهم حُبَّه، حتىٰ خلص ذلك إلىٰ قلوبهم.

وقوله: ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه؛ من كفركم بآيات الله، ومخالفتكم الأنبياء، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ ؛ وهذا أكبر ذنوبكم، وأشد الأمور عليكم؛ إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلىٰ الناس أجمعين؛ فكيف تدَّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة؛ من نقضكم المواثيق، وكفركم بآيات الله، وعبادتكم العجل من دون الله.

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ذَكَرَ محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يقول الله تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ : ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ادعوا بالموت علىٰ أي الفريقين أكذب، فأبوا ذلك.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لعلمهم

بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي علىٰ الأرض يهودي إلا مات.

ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهم -عليهم لعائن الله- لمَّا زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، دُعُوا إلىٰ المباهلة والدعاء علىٰ أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين؛ فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا علىٰ ذلك؛ فلما تأخروا علم كذبهم؛ وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارىٰ بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم، إلىٰ المباهلة، فقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَىٰ الْكَاذِبِينَ﴾ فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقىٰ منكم عين تطرف؛ فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أميناً.

ومثل هذا المعنىٰ أو قريب منه: قوله تعالىٰ لنبيه أن يقول للمشركين: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَانُ مَدًّا﴾ أي: من كان في الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه، ومد له واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله تعالىٰ، وبه الثقة.

فمعنىٰ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوا علىٰ ذلك، وادعوا علىٰ الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تيقنوا ذلك، وعرفوا صدقه، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم، وافترائهم، وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم، وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلىٰ يوم القيامة.

وسُمِّيت هذه المباهلة تمنِّيـًا؛ لأن كل مُحِقٍّ يودُّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره؛ وكانت المباهلة بالموت؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت.

ولهذا قال تعالىٰ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ أي: أحرص الخلق علىٰ طول عمر، لِما يعلمون من مآلهم السيئ، وعاقبتهم

عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر؛ فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون منه واقع بهم لا محالة، حتىٰ وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص علىٰ العام.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ أي: يود أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال مجاهد: حَبَّبتْ إليهم الخطيئةُ طولَ العمر.

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ أي: وما هو بمنجِّيه من العذاب؛ وذلك أن المشرك لا يرجو بعثًا بعد الموت؛ فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: اليهودُ أحرص علىٰ الحياة من هؤلاء؛ وقد ودَّ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة؛ وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عُمِّر كما أن عمر إبليس لم ينفعه، إذ كان كافراً.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم.

وعن أنس بن مالك؛ قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرضٍ يخترف، فأتىٰ النبي ﷺ ؛ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلىٰ أبيه، أو إلىٰ أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفًا. قال: جبريل؟ قال: نعم. قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله. يا رسول الله؛ إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني؛ فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ : أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا

وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: أرأيتم إن أسلم؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فقالوا: هو شرُّنا وابن شرِّنا، وانتقصوه؛ فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. أخرجه البخاري[1].

قال البخاري: قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ قال عكرمة: (جبر) و(ميك) و(إسراف): عبد. و(إيل): الله.

ومن الناس من يقول: إيل عبارة عن عبد، والكلمة الأخرىٰ هي اسم الله؛ لأن كلمة إيل لا تتغير في الجميع، فوِزانه: عبد الله، عبد الرحمن، عبد الملك، عبد القدوس، عبد السلام، عبد الكافي، عبد الجليل؛ فعبد موجودة في هذا كله؛ واختلفت الأسماء المضاف إليها، وكذلك جبرائيل، وميكائيل، وعزرائيل، وإسرافيل، ونحو ذلك، وفي كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه علىٰ المضاف. والله أعلم.

وأما تفسير الآية فقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عادىٰ جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم علىٰ قلبك من الله، بإذنه له في ذلك؛ فهو رسول من رسل الله مَلَكيٌّ، عليه وعلىٰ سائر إخوانه من الملائكة السلام ومن عادىٰ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٠).

رسولاً فقد عادىٰ جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِين عَذَابًا مُهِينًا﴾ فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعضهم؛ وكذلك من عادىٰ جبريل فإنه عدو لله؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه؛ كما قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾.

وقد روىٰ البخاري في صحيحه[1]، عن أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالىٰ: **(من عادىٰ لي وليًا فقد بارزني بالحرب).**

ولهذا غضب الله لجبريل علىٰ من عاداه، فقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هدًى لقلوبهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وبشرىٰ لهم بالجنة؛ وليس ذلك إلا للمؤمنين.

كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾.

ثم قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ يقول تعالىٰ: من عاداني وملائكتي ورسلي. ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالىٰ: (اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ) وتشمل جبريل وميكال، وهذا من باب عطف الخاص علىٰ العام، فإنهما دخلا في الملائكة ثم في عموم الرسل، ثم خصصنا بالذكر؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالىٰ أن من عادىٰ واحداً منهما فقد عادىٰ الآخر، وعادىٰ الله أيضـًا؛ لأنه أيضـًا ينزل علىٰ الأنبياء بعض الأحيان كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات وهذاك بالهدىٰ وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة.

ولهذا جاء في الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: (**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**).

وفي جبريل وميكائيل لغات وقراءات تذكر في كتب اللغة والقراءات، ولم نطوِّل كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنىٰ عليه، أو يرجع الحكم في ذلك إليه، وبالله الثقة وهو المستعان.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر، حيث لم يقل: فإنه عدو؛ بل قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

وإنما أظهر الله هذا الاسم ها هنا لتقرير هذا المعنىٰ وإظهاره، وإعلامهم أن من عادىٰ أولياء الله فقد عادىٰ الله، ومن عادىٰ الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم في الحديث: (**من عادىٰ لي وليًا فقد آذنته بالمحاربة**)[2].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ الآية: أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات علىٰ نبوتك؛ وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأُ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرفه

أوائلهم وأواخرهم، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة؛ فأطلع الله في كتابه الذي أنزله إلىٰ نبيه محمد ﷺ ؛ فكان في ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلىٰ هلاكها الحسد والبغي؛ إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتىٰ بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي.

كما قال الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم، وتخبرهم به غدوةً وعشيةً، وبين ذلك؛ وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً؛ وأنت تخبرهم بما في أيديهم علىٰ وجهه.

﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ قال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء؛ ومنه سُمِّي اللقيط منبوذاً، ومنه سُمِّي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طُرِحا في الماء؛ قال أبو الأسود الدؤلي:

نظرت إلىٰ عنوانه فنبذته　　　كنبذك نعلاً أخلقت من نعالكا

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها؛ ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلىٰ الناس كافة، الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره؛ وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته؛ كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ وقال ها هنا:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم؛ أي: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا علىٰ تعلم السحر واتِّباعه؛ ولهذا أرادوا كيد الرسول ﷺ، وسحروه في مشط ومشاطة؛ وكان الذي تولىٰ ذلك منهم رجل يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله وقبَّحه؛ فأطلع الله علىٰ ذلك رسول الله ﷺ، وشفاه منه، وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطًا في الصحيحين[1]، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كما سيأتي بيانه.

قال السُّدِّي: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت؛ فلم يوافق القرآن؛ فذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون؛ ولكنهم نبذوا علمهم، وكتموه، وجحدوا به.

وقال الربيع بن أنس: إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زمانًا عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالىٰ ما سألوه

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

عنه، فيخصمهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا، وإنهم سألوه عن السحر، وخاصموه به؛ فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وإن الشياطين عمدوا إلىٰ كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة، وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان عليه السلام لا يعلم الغيب، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر، وخدعوا الناس؛ وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه، ويحسد الناس عليه؛ فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث؛ فرجعوا من عنده، وقد أدحض الله حجتهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ قال مجاهد: كانت الشياطين تستمع الوحي، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها، فأرسل سليمان عليه السلام إلىٰ ما كتبوا من ذلك، فلما توفي سليمان وجدته الشياطين، وعلمته الناس وهو السحر.

وقال سعيد بن جبير: كان سليمان يتتبَّع ما في أيدي الشياطين من السحر، فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فَدَنَتْ إلىٰ الإنس؛ فقالوا لهم: أتدرون العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم.

قالوا: فإنه في بيت خزانته، وتحت كرسيه؛ فاستثارته الإنس، واستخرجوه وعملوا بها، فقال أهل الحجا: كان سليمان يعمل بهذا، وهذا سحر؛ فأنزل الله تعالىٰ علىٰ لسان نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾.

وقال محمد بن إسحاق: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر: من كان يحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا، حتىٰ إذا صنفوا أصناف السحر جعلوه في كتاب، ثم ختموه بخاتم علىٰ نقش خاتم سليمان، وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم. ثم دفنوه تحت كرسيه، واستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حتىٰ أحدثوا ما أحدثوا، فما عثروا عليه قالوا: والله ما كان سليمان إلا بهذا، فأفشوا السحر في الناس، فتعلَّموه وعلَّموه، فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله، فلما ذكر رسولُ الله ﷺ -فيما نزل عليه من الله- سليمانَ بنَ داود، وعدَّه فيمن عَدَّ من المرسلين، قال من كان بالمدينة من يهود: ألا تعجبون من محمد؟ يزعم أن ابن داود كان نبيـًا، والله ما كان إلا ساحراً؛ وأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

كَفَرُواْ ﴾ الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي: واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم، ومخالفتهم الرسول محمداً ﷺ ما تتلوه الشياطين؛ أي: ما ترويه وتخبر به، وتحدثه الشياطين، علىٰ ملك سليمان. وعدَّاه بـ (علىٰ) لأنه ضمن تتلو تكذب.

وقال ابن جرير: علىٰ ها هنا بمعنىٰ في؛ أي: تتلو في ملك سليمان. ونقله عن ابن جريج وابن إسحاق.

قلت: والتضمين أحسن وأولىٰ. والله أعلم.

قال الحسن البصري رحمه الله: وقد كان السحر قبل زمن سليمان بن داود، وهذا صحيح لا شك فيه؛ لأنه السحرة كانوا في زمان موسىٰ عليه السلام وسليمان بن داود بعده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ..﴾ ثم ذكر القصة بعدها؛ وفيها (وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَة).

وقال قوم صالح، وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِين﴾ أي: المسحورين علىٰ المشهور.

قال ابن جرير: فتأويل الآية علىٰ هذا: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ من السحر ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾، ولا أنزل الله السحر علىٰ الملكين ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ببابل هاروت وماروت؛ فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه المقدم.

قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ من السحر، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ﴾ وما أنزل الله السحر علىٰ الملكين ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ببابل هاروت وماروت؛ فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر علىٰ لسان جبريل وميكائيل إلىٰ سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت؛ فيكون هاروت وماروت علىٰ هذا التأويل ترجمةً عن الناس، ورداً عليهم.

هذا لفظه بحروفه.

وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين؛ كمجاهد، والسُدِّي، والحسن البصري، وغيرهم؛ وقصَّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلىٰ أخبار بني إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلىٰ الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ.

وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب؛ فنحن نؤمن بما ورد في القرآن علىٰ ما أراده الله تعالىٰ. والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد استدل بعضهم بهذه الآية علىٰ تكفير من تعلم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنىٰ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن همام، عن عبد الله؛ قال: **(من أتىٰ كاهنًا أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد ﷺ)** وهذا إسناد صحيح.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرِّقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف.

وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: **(إن الشيطان يضع عرشه علىٰ**

الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم عنده فتنةً، يجيءُ أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتىٰ تركته وهو يقول كذا وكذا؛ فيقول إبليس: لا، والله ما صنعت شيئًا! ويجيءُ أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فرقت بينه وبين أهله؛ قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت)[1].

ورجَّح شيخُنا أبو الحجاج المزي فتح نون (نَعَمْ) من قوله (نعم أنت) وراجعته فثبت علىٰ ذلك، والمشهور عند النحاة الكسر (نِعْمَ).

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل إلىٰ الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك، أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

والمرء: عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة، ويثنىٰ كل منهما ولا يجمعان. والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله.

وقال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد.

وقال الحسن البصري: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال: نعم؛ من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط؛ ولا

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٣).

يستطيعون ضر أحد إلا بإذن الله؛ كما قال الله تعالىٰ.

وفي رواية عن الحسن أنه قال: لا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: يضرهم في دينهم، وليس له نفع يوازي ضرره.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ أي: ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك أنه ما له في الآخرة من خلاق.

قال ابن عباس، ومجاهد: من خلاق أي من نصيب.

وقال قتادة: ما له في الآخرة من حجة عند الله.

وقال: قال الحسن: ليس له دين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالىٰ: ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسل لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله علىٰ ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ

ثَوَابُ اللهِ خَيرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾.

وقد يستدل بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ من ذهب إلىٰ تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف.

وقيل: بل لا يكفر، ولكنْ حدُّه ضربُ عنقه؛ لما رواه الشافعي، وأحمد بن حنبل -رحمهما الله- عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة.

قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضًا[1].

وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت. قال الإمام أحمد بن حنبل: صحَّ عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر.

وروىٰ الترمذي[2] عن جندب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(حد الساحر ضربة بالسيف)**.

وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه؛ فقال

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٦٠).

الناس: سبحان الله! يحيي الموتىٰ! ورآه رجل من صالحي المهاجرين، فلما كان من الغد جاء مشتملاً علىٰ سيفه؛ وذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه، فضرب عنق الساحر؛ وقال: إن كان ساحراً فليُحي نفسه؛ وتلا قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك، فسجنه ثم أطلقه. والله أعلم.

وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة علىٰ سحر يكون شركـًا. والله أعلم.

والسحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه؛ ولهذا جاء في الحديث: (**إن من البيان سحراً**) وسُمِّيٰ السحور، لكونه يقع خفيـًا آخر الليل. والسَحْر: الرئة، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلىٰ أجزاء البدن وغضونه؛ كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سَحْره؛ أي: انتفخت رئته من الخوف. وقالت عائشة رضي الله عنها: توفي رسول الله ﷺ بين سَحْري ونحري، وقال تعالىٰ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي: أخفوا عنهم عملهم. والله تبارك وتعالىٰ أعلم.

قلت: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله علىٰ رسوله في إذهاب ذلك؛ وهما المعوذتان، وفي الحديث: (**لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما**) وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان.

وقال أبو عبد الله القرطبي: ومن السحر ما يكون بخفة اليد

كالشعوذة. والشعوذي: البريد لخفة سيره. قال ابن فارس: وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية.

قال القرطبي: قوله عليه السلام: (**إن من البيان لسحراً**) يُحْتمل أن يكون مدحـًا كما تقوله طائفة، ويُحْتمل أن يكون ذمـًا للبلاغة، قال: وهذا أصح؛ قال: لأنها تُصوِّب الباطل حتىٰ توهم السامع أنه حق، كما قال عليه الصلاة والسلام: (**فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحُجَّته من بعض فأقضىٰ له...الحديث**).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥ ﴾

نهىٰ الله تعالىٰ عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم؛ وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص، عليهم لعائن الله؛ فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون راعنا، ويورُّون بالرعونة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلا﴾.

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم؛ والسام: هو الموت؛ ولهذا أُمرنا أن نرد عليهم بـ وعليكم، وأنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا.

والغرض أن الله تعالىٰ نهىٰ المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً؛ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ : **(بُعِثْتُ بين يدي الساعة بالسيف حتىٰ يعبد الله وحده لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمري. ومن تشبه بقوم فهو منهم)** أخرجه الإمام أحمد[1]، وفيه دلالةٌ علىٰ النهي الشديد والتهديد والوعيد علىٰ التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا، ولم نقرر عليها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٧).

وروىٰ ابن أبي حاتم أن رجلاً أتىٰ عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إليَّ[1]، فقال: إذا سمعتَ الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فأرعِها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهىٰ عنه.

قال عطاء: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ كانت لغةً تقولها الأنصار، فنهىٰ الله عنها.

وقال الحسن: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا ﴾ قال: الراعن من القول: السخري منه؛ نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوهم إليه من الإسلام.

وقال أبو صخر: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول: أرعنا سمعك، فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له.

وقال السُدِّي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعىٰ رفاعة بن زيد يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك، واسمع غير مسمع. وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر، وهي كالتي في سورة النساء. فتقدم الله إلىٰ المؤمنين أن لا يقولوا: راعنا.

---

(١) اعهد إليَّ: أي أوصني.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله نهىٰ المؤمنين أن يقولوا لنبيه ﷺ : راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله تعالىٰ أن يقولوها لنبيه ﷺ نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: (**لا تقولوا للعنب: الكرم، ولكن قولوا: الحبلة، ولا تقولوا: عبدي، ولكن قولوا: فتاي**)[1]؛ وما أشبه ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يبين تعالىٰ بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالىٰ من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع المودة بينهم وبينهم، وينبِّه تعالىٰ علىٰ ما أنعم به علىٰ المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: أي ما نبدل من آية.

وعن مجاهد قال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ ؛ أي: ما نمحو من آية.

وقال ابن أبي حاتم: نسخها يعني: قبضها ورفعها؛ مثل قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) وقوله: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغىٰ لهما ثالثًا)[1].

وقال ابن جرير: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾: ما ننقل من حكم آية إلىٰ غيره، فنبدله ونغيره؛ وذلك أن نحول الحلال حرامًا والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحًا، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ.

وأصل النسخ: من نسخ الكتاب، وهو: نقله من نسخة إلىٰ أخرىٰ غيرها فكذلك معنىٰ نسخ الحكم إلىٰ غيره إنما هو تحويله ونقل عبادة إلىٰ غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها؛ إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة.

وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ. والأمر في ذلك قريب؛ لأن معنىٰ النسخ الشرعي معلوم عند العلماء. ولخص

(١) كانت هاتان الآيتان، آيتين من القرآن، لكنَّ اللهَ نسخهما، وهو العليم الحكيم.

بعضهم: أنه رفع الحكم بدليل شرعي متأخر؛ فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل، وعكسه، والنسخ لا إلىٰ بدل.

وأما تفاصيل أحكام النسخ، وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط في فن أصول الفقه.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ فقرئ علىٰ وجهين: ننساها ونُنسِها فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه: نؤخِّرها. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما ننسخ من آية أو ننسأها: يقول: ما نبدِّل من آية أو نتركها لا نبدلها. وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: أو ننسأها نثبت خطها ونبدل حكمها. وقال عبيد بن عمير، ومجاهد، وعطاء، أو ننسأها: نؤخرها ونرجئها.

وقال عطية العوفي: أو ننسأها: نؤخرها فلا ننسخها.

وأما علىٰ قراءة أو ننسها: فقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ قال: كان الله عزّ وجل يُنْسِي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: في الحكم بالنسبة إلىٰ مصلحة المكلفين، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.

وقال قتادة: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يرشد تعالىٰ بهذا إلىٰ أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، وهو المتصرِّف؛ فكما يخلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقىٰ من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفِّق من يشاء، ويخذل من يشاء. وكذلك يحكم في عباده بما يشاء؛ فيُحِلُّ ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء؛ وهو الذي يحكم ما يريد؛ لا معقِّب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون؛ ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ؛ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالىٰ، ثم ينهىٰ عنه لما يعلمه تعالىٰ؛ فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره، واتِّباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامتثال ما أُمروا، وترك ما عنه زجروا.

وفي هذا المقام ردٌّ عظيم، وبيانٌّ بليغٌ لكفر اليهود، وتزييف شبهتهم، لعنهم الله، في دعوىٰ استحالة النسخ؛ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً؛ وإما نقلاً كما تخرَّصه آخرون منهم افتراءً وإفكـًا.

قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله:

فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السموات والأرض

وسلطانهما دون غيري، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهىٰ عما أشاء، وأنسخ وأبدِّل وأغيِّر من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء، وأقرُّ فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالىٰ لنبيه ﷺ علىٰ وجه الخبر عن عظمته فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيَّر الله من حكم التوراة؛ فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

قلت: الذي يحمل اليهود علىٰ البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد؛ فإنه ليس في العقل ما يدل علىٰ امتناع النسخ في أحكام الله تعالىٰ؛ لأنه يَحْكم ما يشاء؛ كما أنه يَفْعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها. وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده،

ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه.

ففي هذا المقام بيَّن تعالىٰ جواز النسخ رداً علىٰ اليهود عليهم لعائن الله، حيث قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ وقُرئ في سورة آل عمران التي نزل صدرُها خطاباً مع أهل الكتاب وقوع النسخ عند اليهود في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ كما سيأتي تفسيره.

والمسلمون كلهم متفقون علىٰ جواز النسخ في أحكام الله تعالىٰ، لما له في ذلك من الحكمة البالغة؛ وكلهم قال بوقوعه.

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

نهىٰ الله تبارك وتعالىٰ المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ

تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم؛ ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيحين: (**إن أعظم المسلمين جِرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحُرِّم من أجل مسألته**)[1].

وثبت في الصحيحين[2] من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان ينهىٰ عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال.

وفي صحيح مسلم[3]: (**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**).

وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج؛ فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثـاً. ثم قال عليه السلام: (**لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم؛ ثم قال: ذروني ما تركتكم..**) الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (٥٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٢).

ولهذا قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نُهِينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع.

وقوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي: بل تريدون. أو هي علىٰ بابها في الاستفهام؛ وهو إنكاري، وهو يعم المؤمنين والكافرين؛ فإنه عليه السلام رسول الله إلىٰ الجميع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم﴾.

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء علىٰ وجه التعنُّت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسىٰ عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ أي: ومن يشتر الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيْلِ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلىٰ الجهل والضلال.

وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلىٰ مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها علىٰ وجه التعنُّت والكفر؛ كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ

اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

يحذر تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم؛ ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتىٰ يأتي أمر الله من النصر والفتح؛ ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ ويحثُّهم علىٰ ذلك ويرغِّبهم فيه.

وكذلك قال الله تعالىٰ: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يقول: من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئًا، ولكن الحسد حملهم علىٰ الجحود؛ فعيَّرهم ووبَّخهم ولامهم أشد الملامة؛ وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان

والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

قال أبو العالية: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً؛ إذ كان من غيرهم.

وقوله: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيرًا..﴾ الآية.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ نَسَخَ ذلك قوله: (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وقوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ إِلىٰ قوله: وَهُمْ صَاغِرُونَ) فنسخ هذا عفوَه عن المشركين.

وكذا قال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُدِّي: إنها منسوخة بآية السيف؛ ويرشد إلىٰ ذلك أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره؛ قال: كان رسول

الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى؛ قال الله: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش. وهذا إسناد صحيح ولم أره في شيء من الكتب الستة؛ ولكن له أصل في الصحيحين[1]، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة؛ من إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد؛ ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يعني: أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه، سواء كان خيراً أو سراً؛ فإنه سيجازي كل عامل بعمله.

وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سراً وعلانيةً، فهو به بصير لا يخفى عليه منه

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً وبالإساءة مثلها.

وهذا الكلام وإن كان خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعيداً، وأمراً وزجراً؛ وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدِّوا في طاعته؛ إذا كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتىٰ يثيبهم عليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وليحذروا معصيته.

قال: وأما قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾ فإنه مبصِر، صُرِف إلىٰ: بصير، كما صُرِف مبدع إلىٰ: بديع، ومؤلم إلىٰ: أليم. والله أعلم.

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يبين تعالىٰ اغترار اليهود والنصارىٰ بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارىٰ أنه لن يدخل الجنة إلا من كان علىٰ ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فأكذبهم الله تعالىٰ

بما أخبرهم أنه يعذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودةً، ثم ينتقلون إلىٰ الجنة، ورد عليهم تعالىٰ في ذلك.

وهكذا قال لهم في هذه الدعوىٰ التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة؛ فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾.

ثم قال تعالىٰ: قُلْ أي: يا محمد: ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ قال أبو العالية ومجاهد: أي هاتوا حجتكم.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: فيما تدَّعونه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾.

وقال أبو العالية: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ يقول: من أخلص لله.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أخلص ﴿وَجْهَهُۥ ﴾ قال: دينه ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: متبَّعٌ فيه الرسول ﷺ ؛ فإن للعمل المتقبل شرطين:

أحدهما: أن يكون خالصًا لله وحده.

والآخر: أن يكون صوابـًا موافقـًا للشريعة.

فمتىٰ كان خالصـًا ولم يكن صوابـًا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**) رواه مسلم.

فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فُرِض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتىٰ يكون ذلك متابعـًا للرسول محمد ﷺ المبعوث إليهم وإلىٰ الناس كافة.

وفيهم وأمثالهم قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا وقال تعالىٰ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾.

وروي عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه تأولها في الرهبان.

وإن كان العمل موافقـًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله تعالىٰ فهو أيضـًا مردود علىٰ فاعله. وهذا حال المنافقين والمرائين؛ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَىٰ الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ

سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

وقوله: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالىٰ علىٰ ذلك تحصيل الأجور، وأمَّنهم مما يخافونه من المحذور ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ علىٰ ما مضىٰ مما يتركونه.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يُبيِّن به تعالىٰ تناقضهم وتباغضهم، وتعاديهم وتعاندهم.

قال قتادة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ قال: بلىٰ. قد كانت أوائل النصارىٰ علىٰ شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ قال: بلىٰ؛ قد كانت أوائل اليهود علىٰ شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا.

وعنه رواية أخرىٰ؛ كقول أبي العالية، والربيع بن أنس، في تفسير هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله ﷺ .

وهذا القول يقتضي أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرىٰ؛ ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعةً في وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلةً للفاسد بالفاسد.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بين بهذا جهل اليهود والنصارىٰ فيما تقابلوا به من القول؛ وهذا من باب الإيماء والإشارة.

وقد اختُلف فيمن عني بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فقال الربيع بن أنس، وقتادة: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي وقالت النصارىٰ مثل قول اليهود.

وقال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارىٰ، وقبل التوراة والإنجيل.

وقال السُدِّي: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم العرب؛ قالوا: ليس محمد علىٰ شيء.

واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل علىٰ الجميع أولىٰ. والله أعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

أي: إنه تعالىٰ يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال الذرة.

وهذه الآية كقوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وكما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾

اختلف المفسِّرون في المراد من الذين منعوا مَسَاجِدَ اللهِ، وسعوا في خرابها علىٰ قولين:

أحدهما: قول مجاهد: هم النصارىٰ، كانوا يطرحون الأذىٰ في بيت المقدس، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه.

القول الثاني: ما روي عن ابن زيد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ قال: هؤلاء هم المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة

حتىٰ نحر هديه بذي طوىٰ، وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقىٰ قاتل أبيه وأخيه فلا يصده. فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق.

وفي قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ قال: إذ قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن قريشـًا منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشـًا لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: والذي يظهر -والله أعلم- القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس؛ لأن النصارىٰ إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك؛ لأنهم لُعِنوا من قبل علىٰ لسان داود وعيسىٰ بن مريم؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

وأيضا فإنه تعالىٰ لما وجه الذم في حق اليهود والنصارىٰ شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام.

وأما اعتماده علىٰ أن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليهم بأصنامهم وأندادهم وشركهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..﴾ وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُون..﴾ وقال تعالىٰ: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّه..﴾ فأي خراب أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها، وإقامة صورتها فقط؛ إنما عمارتها بذكر الله فيها، وإقامة شرعه فيها، ورفعها من الدنس والشرك.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾ هذا خبر معناه الطلب؛ أي: لا تمكِّنوا هؤلاء، إذا قدرتم عليهم، من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية؛ ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن يُناديٰ برحاب منىٰ: **(ألا لا يَحُجَّنَّ بعد العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلىٰ مُدَّته)**[1].

وهذا كان تصديقًا وعملاً بقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٥٥)، ومسلم (١٣٤٧).

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين علىٰ حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً عن أن يستولوا عليها، ويمنعوا المؤمنين منها.

والمعنىٰ: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم. وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم علىٰ المسجد الحرام وعلىٰ سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتىٰ لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفـًا، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم.

وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول الحرم وأوصىٰ رسول الله ﷺ أن لا يبقىٰ بجزيرة العرب دينان، وأن يُجْلَىٰ اليهود والنصارىٰ منها. ولله الحمد والمنة.

وما ذاك إلا لتشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلىٰ الناس كافةً بشيراً ونذيراً، صلوات الله وسلامه عليه. وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صَدَّوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدُّوا عنه، وكما أَجْلوهم من مكة أُجْلوا عنها.

﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ علىٰ ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلىٰ غير الله عنده، والطواف

به عريـًا، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله.

وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة؛ كما روىٰ الإمام أحمد[1] عن بُسْر بن أرطاة؛ قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: **(اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة)** وهذا حديث حسن؛ وليس هو في شيء من الكتب الستة، وليس لصحابيه وهو بُسْر بن أرطاة -ويقال: ابن أبي أرطاة- حديث سواه، وسوىٰ حديث: **(لا تُقْطَع الأيدي في الغزو)**.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

هذا -والله أعلم- فيه تسليةٌ للرسول ﷺ وأصحابه الذين أُخرِجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم؛ وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلىٰ بيت المقدس والكعبة بين يديه؛ فلما قدم المدينة وجَّه إلىٰ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلىٰ الكعبة بعد؛ ولهذا يقول تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس؛ قال: أوَّل ما نُسِخَ لنا من القرآن فيما ذكر لنا -والله أعلم- شأنُ القبلة؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨١).

فاستقبل رسول الله ﷺ فصلىٰ نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق ثم صرفه الله إلىٰ البيت العتيق ونسخها، وصرفه إلىٰ البيت العتيق فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلىٰ المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلىٰ السماء، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وقال مجاهد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها للكعبة.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلىٰ الكعبة؛ وإنما أنزلها تعالىٰ ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي

المشرق والمغرب؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحيةً إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية؛ لأن له تعالىٰ المشارق والمغارب. قالوا: ثم نُسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلىٰ المسجد الحرام. هكذا قال.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ إذنًا من الله أن يصلي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره، وفي حال المسايفة، وشدة الخوف، فعن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته؛ ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك. ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

وأصل ذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية[1].

وفي صحيح البخاري[2] من حديث نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا سُئِل عن صلاة الخوف وصفها؛ ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قيامًا علىٰ أقدامهم، وركبانًا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. قال نافع: ولا أرىٰ ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٣)، ومسلم (٧٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٣٥).

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها، فصلوا علىٰ أنحاء مختلفة، فقال الله تعالىٰ: لي المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ واسع: أي يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال. عليم: يعني عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه؛ بل هو بجميعها عليم.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها علىٰ الرد علىٰ النصارىٰ، عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب؛ من جعل الملائكة بنات الله، فأَكْذَبَ اللهُ جميعَهم في دعواهم وقولهم: إن لله ولداً؛ فقال تعالىٰ: (سُبْحَانَهُ) أي: تعالىٰ وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً.

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ليس الأمر كما افتروا؛ وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن؛ وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء؛

والجميع عبيد له وملك له؛ فكيف يكون له ولد منهم؛ والولد إنما يكون متولداً من شَيئَيْنِ متناسبين، وهو تبارك وتعالىٰ ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له؛ فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا للرحْمَانِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد﴾.

فقرر تعالىٰ في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟

روىٰ البخاري[1] عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ؛ قال: قال الله تعالىٰ: **(كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان. وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، فسبحاني أن اتخذ صاحبةً أو ولداً).**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

وفي الصحيحين[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(لا أحد أصبر علىٰ أذىً سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم)**.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ قال ابن عباس: قانتون أي مصلّون.

وقال عكرمة: مُقِرُّون له بالعبودية.

وقال السُدِّي: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾: مطيعون يوم القيامة.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما علىٰ غير مثالٍ سبق، قاله مجاهد، والسُّدِّي: وهو مقتضىٰ اللغة؛ ومنه يقال للشيء المُحْدَث: بدعة، كما جاء في صحيح مسلم: **(فإن كل محدثة بدعة)**[2].

والبدعة علىٰ قسمين: تارة تكون بدعةً شرعية؛ كقوله: **(فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)** وتارة تكون بدعةً لغويةً؛ كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن جمعه إياهم علىٰ صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه.

وقال ابن جرير: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مُبْدِعهما، وإنما هو مُفْعِل، فصُرِفَ إلىٰ فعيل، كما صُرِفَ المؤلم إلىٰ الأليم. ومعنىٰ المُبْدِع: المُنْشئ والمُحْدِث ما لا يسبقه إلىٰ إنشاء مثله وإحداثه أحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧).

قال: ولذلك سُمِّي المبتدع في الدين مبتدعـًا؛ لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل مُحْدِثٍ قولاً أو فعلاً لم يتقدم فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعـًا ومن ذلك قول أعشىٰ بن ثعلبة في مدح هوذة بن علي الحنفي:

يُرعىٰ إلىٰ قول سادات الرجال إذا أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

أي: يُحْدِث ما شاء.

قال ابن جرير: فمعنىٰ الكلام: سبحان الله أنَّىٰ يكون لله ولد وهو مالك ما في السماوات والأرض، تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه؛ وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلىٰ الله بنوّته، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلىٰ غير مثال هو الذي ابتدع المسيح عيسىٰ من غير والد بقدرته.

وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ يبين بذلك تعالىٰ كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدَّر أمراً، وأراد كونه، فإنما يقول له: كن؛ أي: مرةً واحدةٍ، فيكون؛ أي: فيوجد علىٰ وفق ما أراد؛ كما

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾.

ونبَّه تعالىٰ بذلك أيضـًا علىٰ أنه خلق عيسىٰ بكلمة كن، فكان كما أمره الله؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

روىٰ محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ أنه قال: قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتىٰ نسمع كلامه؛ فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: هم النصارىٰ، وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم. وفي ذلك نظر.

وقال أبو العالية في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب.

وحكىٰ القرطبي: ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: يخاطبنا بنبوتك يا

محمد. قلت: وهو ظاهر السياق. والله أعلم.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ قالوا: هم اليهود والنصارىٰ. ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عَتُوًّا كَبِيرًا﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ كفر مشركي العرب وعتوِّهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به؛ إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم؛ كما قال تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ

أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللهَ جَهْرَةً﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد أوضحنا الدلالات علىٰ صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلىٰ سؤال آخر، وزيادة أخرىٰ لمن أيقن وصدق، واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالىٰ. وأما من ختم الله علىٰ قلبه وسمعه، وجعل علىٰ بصره غشاوة، فأولئك قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

عن عطاء بن يسارٍ قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة: فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً

وحرزاً للأميين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتىٰ يقيم به الملة العوجاء؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا. أخرجه البخاري[1].

وقوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك؛ كقوله: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ وكقوله تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ ، وكقوله تعالىٰ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وأشباه ذلك من الآيات.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ وليست اليهود يا محمد ولا النصارىٰ براضية

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٥).

عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبِلْ علىٰ طلب رضا الله في دعائهم إلىٰ ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: قل يا محمد: إن هدىٰ الله الذي بعثني به هو الهدىٰ؛ يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارىٰ بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك؛ فإن الخطاب مع الرسول والأمة مرادة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: والذي نفسي بيده، إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئًا علىٰ غير تأويله.

وقال الحسن البصري: يعملون بمُحْكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أُشكل عليهم إلىٰ عالمه.

وقال أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من يتبع القرآن يهبط به علىٰ رياض الجنة.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ خَبَرٌ عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة علىٰ الأنبياء المتقدمين حق إقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الإخبار بمبعث محمد ﷺ ونعْته وصفته، والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلىٰ الحق، واتباع الخير في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا﴾ أي: إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعـًا. وقال تعالىٰ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

وفي الصحيح[1] أن النبي ﷺ قال: (**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

قد تقدَّم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكُرِّرت ها هنا للتأكيد والحث علىٰ اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم، ونعته واسمه، وأمره وأمته؛ فحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب علىٰ ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد علىٰ مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلىٰ يوم الدين.

﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

يقول تعالىٰ منبِّهًا علىٰ شرف إبراهيم خليله، عليه الصلاة و السلام، وأن الله تعالىٰ جعله إمامًا للناس يقتدىٰ به في التوحيد، حين قام بما كلفه

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

الله تعالىٰ به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ أي: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون مِلَّة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما المستقيم عليها هم أنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم؛ أي: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن كلهن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي: وفَّىٰ جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله وسلامه عليه، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وقال تعالىٰ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ أي: بشرائع وأوامر ونواهي، فإن الكلمات تُطْلق؛ ويراد بها الكلمات القدرية؛ كقوله تعالىٰ عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ وتُطلق ويراد بها الشرعية؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ

﴿لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: كلماته الشرعية. وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهن. قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: جزاءً علىٰ ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يُقتدىٰ به، ويُحتذىٰ حذوه.

وقد اختلف العلماء في تفسير الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروي عن ابن عباس في ذلك روايات:

فعن قتادة قال، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ابتلاه الله بالمناسك.

وروىٰ محمد بن إسحاق عنه أنه قال: الكلمات التي ابتلىٰ الله بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه حين أمره الله بمفارقتهم، ومحاجته نمروذ، وصبره علىٰ قذفه إياه في النار ليحرقوه، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها، وما ابتُلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأُجيب إلىٰ ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، فلا يكونون أئمةً فلا يقتدىٰ بهم: والدليل علىٰ أنه أجيب إلىٰ طلبته قول الله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فكل نبي

أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد: أما من كان منهم صالحـًا فسأجعله إمامـًا يقتدىٰ به، وأما من كان ظالمـًا فلا ولا نِعْمة عين.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئـًا من أمره، وإن كان من ذرية خليله محسنٌ ستنفذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾

قال العوفي، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه ثم يرجعون إلىٰ أهليهم ثم يعودون إليه.

وعن عبدة بن أبي لبابة، في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: لا ينصرف عنه منصرف وهو يرىٰ أنه قد قضىٰ منه وطراً.

وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنىٰ:

جعل البيت مثابـًا لهم ليس منه الدهر يقضون الوطرْ

وعن أبي العالية: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا﴾ قال: أمناً من العدو، وأن يُحْمل فيه السلاح. وقد كانوا في الجاهلية يُتخطف الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسْبَون.

ومضمون ما فسَّر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالىٰ يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً، من كونه مثابةً للناس؛ أي: جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضىٰ منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالىٰ لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ ويصفه تعالىٰ بأنه جعله أمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً.

وفي هذه الآية الكريمة نبه علىٰ مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو؟

فعن ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك.

وعن سعيد بن جبير: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال: الحَجَر مقام إبراهيم ليَّنه الله وجعله له رحمةً، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة.

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، أنه سمع جابراً يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: لما طاف النبي ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: نعم، قال: أفلا نتخذه مصلىٰ؟ فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

وفي البخاري[1]: في باب قوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلىٰ؟ فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، حتىٰ أتيت إحدىٰ نسائه، فقالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتىٰ تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ الآية.

وهذا مما يدل علىٰ أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٣).

الجدار، كلما كمل ناحية انتقل إلىٰ الناحية الأخرىٰ، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلىٰ الناحية التي تليها هكذا، حتىٰ أتم جدارات الكعبة، وكانت آثار قدميه ظاهرةً فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبةً   علىٰ قدميه حافيًا غير ناعلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا كما قال أنس بن مالك: رأيت المقام فيه أثر أصابعه عليه السلام، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

وعن قتادة قال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ إنما أُمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئًا تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذكر لنا من رأىٰ أثر عقبه وأصابعه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتىٰ اخلولق وانمحىٰ.

قلت: وقد كان المقام ملصقًا بجدار الكعبة قديمًا، ومكانه معروف اليوم إلىٰ جانب الباب مما يلي الحِجْر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلىٰ جدار الكعبة أو أنه انتهىٰ عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا -والله أعلم- أُمِر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم

حيث انتهىٰ بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أُمِرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر[1]. وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين.

قال مجاهد: أول من أخَّر المقام إلىٰ موضعه الآن: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن المقام كان في زمان رسول الله ﷺ وفي زمان أبي بكر ملتصقًا بالبيت، ثم أخَّره عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. أخرجه البيهقي بإسناد صحيح.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وذكره الألباني في الصحيحة (١٢٣٣).

ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

قال الحسن البصري: قوله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهِّراه من الأذىٰ والنجس ولا يصيبه من ذلك شيء.

والظاهر أن هذا الحرف إنما عُدِّي بإلىٰ، لأنه في معنىٰ: تقدمنا وأوحينا.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قوله: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ قال: من الأوثان.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالىٰ: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ يعني: من أتاه من غربة، ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين فيه.

وعن عطاء، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود.

والمراد من ذلك الرد علىٰ المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند

بيته المؤسس علىٰ عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثم ذكر أن البيت إنما أُسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها؛ وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم في قوله ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَاد﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واجتزأ بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد عُلِمَ أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام.

وتقدير الكلام إذن: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أي: تقدمنا بوحينا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: طهِّراه من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله، معقِلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود.

وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ ومأخوذٌ من السُّنَّة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك، من صيانتها من الأذىٰ والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه

السلام: (**إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له**) وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءاً علىٰ حِدَة، ولله الحمد والمنة.

وقد اختلف الناس في أول من بنىٰ الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، وقيل: آدم عليه السلام، وقيل إن أول من بناه شيث عليه السلام، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يُصدَّق ولا يُكذَّب ولا يُعتمد عليها بمجردها، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلىٰ الرأس والعين.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصاد صيدها ولا يُقطع عِضاهها**)[1] أخرجه مسلم[2].

وفي الصحيحين[3] عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة.

---

(١) عِضاهها: أي شجرها.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٥).

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ : **(إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوتُ لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة)**. رواه البخاري ومسلم وهذا لفظ البخاري[1].

والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم -عليه السلام- لمكة، لما في ذلك في مطابقة الآية الكريمة.

وقوله تعالىٰ إخباراً عن الخليل عليه السلام أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أي: من الخوف، لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعـًا وقدراً؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات. وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيها.

وفي صحيح مسلم[2] عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح)**.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ

(١) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٦٥).

وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

هذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾. الضمير في (قال) راجعٌ إلىٰ الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: ثم أُلجِئه بعد متاعِه في الدنيا وبَسْطِنا عليه من ظِلِّها إلىٰ عذاب النار وبئس المصير.

ومعناه: أن الله تعالىٰ يُنظرهم ويُمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

وفي الصحيحين(١) أن النبي ﷺ قال: **(إن الله ليُمْلي للظالم حتىٰ إذا**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

أخذه لم يُفْلِتْهُ) ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالقواعد: جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالىٰ: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالىٰ أن يتقبل منهما، كما روىٰ ابن أبي حاتم عن وهيب بن الورد أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ ثم بكىٰ وقال: يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألَّا يُتقبَّل منك؟

وهذا كما حكىٰ الله تعالىٰ عن حال المؤمنين الخُلَّص في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة ألا يُتقبَّل منهم.

وقوله تعالىٰ حكايةً لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

قال ابن جرير: يعنيان بذلك: اجعلنا مستسلمَين لأمرك، خاضعيَن لطاعتك، لا نُشْرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، كما أخبر الله تعالىٰ عن عباده المتقين المؤمنين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهذا القدر مرغوب فيه شرعـًا، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالىٰ أن يحب أن يكون من صُلْبه من يعبد الله وحده لا شريك له؛ ولهذا لما قال الله تعالىٰ لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين﴾ وقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَام﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**)[1].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قال مجاهد: قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأتاه جبرائيل، فأتىٰ به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلىٰ الصفا، قال:

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

هذا من شعائر الله. ثم انطلق به إلىٰ المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منىٰ، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبِّر وارمه، فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطىٰ، فلما حاذىٰ به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه، فكبر ورماه، فذهب إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئًا فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتىٰ أتىٰ به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتىٰ أتىٰ به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها: ثلاث مرار. قال: نعم.

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾

يقول تعالىٰ إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم؛ أي: من ذرية إبراهيم.

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم، إلىٰ سائر الأعجمين، من الإنس والجن، كما روىٰ الإمام أحمد عن لقمان بن عامر: سمعت أبا أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان أول بدء أمرك؟ قال: **(دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام)**.

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس، إبراهيم عليه السلام. ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتىٰ أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبـًا، وهو عيسىٰ ابن مريم عليه السلام حيث قام في بني إسرائيل خطيبـًا، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ ولهذا قال في هذا الحديث: دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ ابن مريم.

وقوله: **(ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام)** قيل: كان منامـًا رأته حين حملت به، وقصته علىٰ قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئةً. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلىٰ استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسىٰ ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم كذلك)**[1]. وفي صحيح البخاري: وهم بالشام.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الكتاب يعني: القرآن: والحكمة يعني: السُنَّة، قاله الحسن وقتادة وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠)، ومسلم (١٩٢١).

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: طاعة الله والإخلاص.

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاه عنهم إذا أطاعوه وليستكثروا من طاعته، ويجتنبوا ما سخط من معصيته.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

يقول تبارك وتعالىٰ رداً علىٰ الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرَّد توحيد ربه تبارك وتعالىٰ، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتىٰ تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

ولهذا وأمثاله قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي: عن طريقته ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلىٰ الضلال، حيث خالف طريق من اصطفىٰ في الدنيا للهداية والرشاد، من حداثة سنه إلىٰ أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي، فأي سفهٍ أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أمره الله تعالىٰ بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلىٰ ذلك شرعـًا وقدراً.

وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصىٰ بهذه الملة، وهي الإسلام لله.

أو يعود الضمير علىٰ الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلىٰ حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: أحسِنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبًا علىٰ ما كان عليه، ويُبعث علىٰ ما مات عليه. وقد أجرىٰ الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفِّقَ له ويُسِّر عليه، ومن نوىٰ صالحًا ثبت عليه.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

يقول تعالىٰ محتجًّا علىٰ المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلىٰ الكفار من بني إسرائيل -وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام- بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصىٰ بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ

﴿إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. قال النحَّاس: العرب تُسمِّىٰ العمَّ أبـًا.

وقوله: ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي: نوحِّده بالألوهية، ولا نشرك به شيئـًا غيره.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ والإسلام هو مِلَّة الأنبياء قاطبةً، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ والآيات في هذا كثيرة والأحاديث، ومنها قوله ﷺ: (نحن – معشر الأنبياء– أولاد عَلَّات ديننا واحد)[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي أن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد جاء في الأثر: (**من أبطأ به عملُه لم يُسْرِع به نسبُه**)[2].

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدىٰ إلا ما نحن عليه، فاتَّبِعنا يا محمد تهتد. وقالت النصارىٰ مثل ذلك، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾.

وقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: لا نريد ما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية، بل نتبع مِلَّة إبراهيم حنيفـًا، أي: مستقيمـًا.

وقال أبو قلابة: الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم. وقال قتادة: الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

أرشد الله تعالىٰ عباده المؤمنين إلىٰ الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل علىٰ الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص علىٰ أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنون بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ

بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

عن أبي هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : **(لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم)**. أخرجه البخاري[1].

وقال أبو العالية: الأسباط: هم بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً؛ وَلَدَ كل رجل منهم أمة من الناس، فسُمُّوا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل؛ كالقبائل في بني إسماعيل؛ وقال الزمخشري في الكشاف: الأسباط: حَفَدَةُ يعقوب وذراري أبنائه الاثني عشر، وقد نقله الرازي عنه، وقرره ولم يعارضه.

وقال البخاري: الأسباط: قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ها هنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله تعالىٰ من الوحي علىٰ الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسىٰ لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٥).

وقال القرطبي: والسِبْط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلىٰ أصل واحد.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةٗۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ أي: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: عن الحق إلىٰ الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم وهو السميع العليم.

وقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي دين الله . قاله ابن عباس وغيره.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٞ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

يقول الله تعالىٰ مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلىٰ درء مجادلة المشركين: ﴿ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ ﴾ أي: أتناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتِّباع أوامره وترك زواجره ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ المتصرِّف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ ﴾ أي: نحن برآء منك، وأنتم برآء منا، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وقال تعالىٰ إخباراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾.

وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴾ أي: نحن بُرآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون؛ أي: في العبادة والتوجُّه.

ثم أنكر تعالىٰ عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا علىٰ ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ ﴾ يعني: بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً

ولا نصارىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم: إن الدين الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا بُرآء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقرُّوا به علىٰ أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد؛ أي: أن علمه محيط بعملكم، وسيجزيكم عليه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وليس يُغْني عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغترُّوا بمجرد النسبة إليهم حتىٰ تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله الذين بُعِثوا مُبشِّرين ومُنذرين، فإنه من كفر بنبيٍّ واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلىٰ جميع الإنس والجن من سائر المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ سائر أنبياء الله أجمعين أبداً دائمـاً إلىٰ يوم الدين ورضي الله عن أصحابه وأصحابهم المتبعين إلىٰ يوم الحشر واليقين.

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾

قيل: المراد بالسفهاء هنا مشركو العرب، وقيل: أحبار يهود، وقيل: المنافقون.

والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم.

وعن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلّىٰ إلىٰ بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وإنه صلّىٰ أول صلاة صلاّها صلاة العصر، وصلّىٰ معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلّىٰ معه، فمَرَّ علىٰ أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صلّيت مع النبي ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَل البيت. وكان الذي مات علىٰ القبلة قبل أن تُحوّل قِبَلَ البيت رجالاً قُتلوا لم ندرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله عزّ وجل ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ

رَّحِيمٌ ﴾ رواه البخاري ومسلم[1].

وروىٰ محمد بن إسحاق عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي نحو بيت المقدس، ويُكْثِر النظر إلىٰ السماء، ينتظر أمر الله، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا من مات مِنَّا قبل أن نُصرف إلىٰ القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ وقال السفهاء من الناس، وهم أهل الكتاب: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ فأنزل الله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إلىٰ آخر الآية.

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أُمِرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلي بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلىٰ المدينة تعذر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلىٰ بيت المقدس، فاستمر الأمر علىٰ ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوجه إلىٰ الكعبة التي هي قِبلة إبراهيم، فأُجيب إلىٰ ذلك، وأُمر بالتوجه إلىٰ البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس، فأعلمهم

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥).

بذلك، وكان أول صلاة صلاّها إليها: صلاة العصر، كما في الصحيحين من رواية البراء.

ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدىٰ وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ﴾ أي: الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجِّهنا توجَّهنا، فالطاعة في امتثال أمره، ولو وجِّهنا في كل يوم مرات إلىٰ جهات متعدّدة، فنحن عبيده وفي تصرُّفه، وخدّامه حيثما وجِّهنا توجّهنا، وهو تعالىٰ له بعبده ورسوله محمد ﷺ وأُمته عناية عظيمة، إذ هداهم إلىٰ قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجُّههم إلىٰ الكعبة المبنيّة علىٰ اسمه تعالىٰ وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله في الأرض إذ هي بناية إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يقول تعالىٰ: إنما حَوّلناكم إلىٰ قِبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأُمم، لتكونوا

يوم القيامة شهداء علىٰ الأُمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطىٰ التي هي أفضل الصلوات وهي: العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأُمة وسطًا خصّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأصح المذاهب، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**يُدعىٰ نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيُدعىٰ قومه، فيقال لهم: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيُقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. قال: فذلك قوله:** ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ **قال: والوسط: العدل، فتُدْعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم**) رواه البخاري[1].

وعن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتُها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتًا ذريعًا، فجلست إلىٰ عمر بن الخطاب فمرّت

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩).

به جنازة، فأُثنىٰ علىٰ صاحبها خيراً، فقال: وجبت، وجبت، ثم مُرَّ بأخرىٰ فأُثنيٰ عليها شراً، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: **(أيما مسلم شَهِد له أربعة بخير أدخله الله الجنة. قال: فقلنا: وثلاثة؟ قال: فقال: وثلاثة. قال: فقلنا: واثنان؟ قال: واثنان. ثم لم نسأله عن الواحد)** رواه البخاري[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾. يقول تعالىٰ: إنما شرعنا لك يا محمد التوجُّه أولاً إلىٰ بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلىٰ الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجَّهت ممن ينقلب علىٰ عقبيه؛ أي: مرتداً عن دينه.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: هذه الفعلة وهو: صرف التوجُّه عن بيت المقدس إلىٰ الكعبة، أي: وإن كان هذا لأمراً عظيماً في النفوس إلا علىٰ الذين هدىٰ الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٨).

تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ للذين آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا﴾ ولهذا كان من ثبت علىٰ تصديق الرسول ﷺ واتِّباعه في ذلك وتوجَّه حيث أمره الله، من سادات الصحابة، من غير شك ولا ريب.

وروىٰ البخاري[1] في تفسير هذه الآية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء، إذ جاءَ جاءٍ فقال: قد أُنْزِل علىٰ النبي ﷺ قرآن، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها فتوجّهوا إلىٰ الكعبة. ورواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر.

ورواه الترمذي من حديث سفيان الثوري، وعنده أنهم كانوا ركوعًا فاستداروا كما هم إلىٰ الكعبة وهم ركوع.

وهذا يدل علىٰ كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عزّ وجل رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلىٰ بيت

(١) أخرجه البخاري (٤٠٣)، ومسلم (٥٢٦).

المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوبها عند الله.

وفي الصحيح[1] من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ قال: ما كان الله ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولىٰ وتصديقكم نبيّكم واتباعه إلىٰ القبلة الأخرىٰ؛ أي: ليعطيكم أجرهما جميعًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي: واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة، وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالىٰ سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وما خصّه الله تعالىٰ به وشرفه من

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٦)، ومسلم (٥٢٥).

الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، ولهذا يهددهم الله تعالىٰ بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

يخبر تعالىٰ عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ وأنه لو أقام عليهم كل دليل علىٰ صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالىٰ به، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضـًا متمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله وما كان متوجّهـًا إلىٰ بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالىٰ.

ثم حذّر تعالىٰ عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلىٰ الهوىٰ، فإن

العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد الأُمَّة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

يخبر تعالىٰ أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا. قال القرطبي: ويُروىٰ عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء علىٰ الأمين في الأرض بنعته فعرفته.

قلت: وقد يكون المراد ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ من بين أبناء الناس. لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من بين أبناء الناس كلهم، ثم أخبر تعالىٰ أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ.

ثم ثبَّت تعالىٰ نبيه ﷺ والمؤمنين، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ

مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾

قال أبو العالية: لليهودي وجهة هو موليها، وللنصراني وجهة هو موليها، وهداكم أنتم أيتها الأمة الموقنون للقبلة التي هي القبلة.

وهذه الآية شبيهةٌ بقوله تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَىٰ اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وقال هاهنا: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي: هو قادر علىٰ جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾

هذا أمرٌ ثالثٌ من الله تعالىٰ باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض.

وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات: فقيل: تأكيد، لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام علىٰ ما نصَّ عليه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره.

وقيل: بل هو مُنزَّل علىٰ أحوال:

فالأمر الأول: لمن هو مشاهد الكعبة.

والثاني: لمن هو في مكة غائبًا عنها.

والثالث: لمن هو في بقية البلدان.

هكذا وجهه فخر الدين الرازي.

وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلىٰ الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها علىٰ المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلىٰ بيت المقدس وهذا أظهر.

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تخشوا شُبَهَ الظلمة المتعنِّتين، وأفرِدوا الخشية لي، فإنه تعالىٰ هو أهل أن يُخشىٰ منه.

وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ عطفٌ علىٰ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي لأُتِمَّ نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: إلىٰ ما ضلّت عنه الأُمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأُمة

أشرف الأُمم وأفضلها.

﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾

يذكّر تعالىٰ عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات ويزكّيهم؛ أي: يطهِّرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي: السنّة، ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويُمْن سفارته إلىٰ حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علمـًا، وأبرّهم قلوبـًا، وأقلّهم تكلُّفـًا، وأصدقهم لهجة.

وقال تعالىٰ: ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ الآية، وذمَّ من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

ولهذا نَدَبَ الله المؤمنين إلىٰ الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره فقال: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾.

قال مجاهد في قوله: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ ﴾ يقول: كما فعلتُ

فاذكروني.

وعن زيد بن أسلم أن موسىٰ عليه السلام قال: يا ربِّ كيف أشكرك؟ قال له ربه: تذكرني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني.

قال الحسن البصري: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذِّب من كفره.

وقال بعض السلف في قوله تعالىٰ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، قال: هو أن يُطاع فلا يُعصىٰ، ويُذكر فلا يُنسىٰ، ويُشكر فلا يُكفر.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ جاء في الحديث الصحيح[1]: **(يقول الله تعالىٰ: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)**.

وروىٰ الإمام البخاري عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(قال الله عزّ وجل: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة أو قال: في ملأ خير منهم، وإن دنوتَ مني شبراً دنوتُ منك ذراعـًا، وإن دنوتَ مني ذراعـًا دنوتُ منك باعـًا، وإن**

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

أتيتني تمشي أتيتك أهرول)[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ أمر الله تعالىٰ بشكره، ووعد علىٰ شكره بمزيد الخير فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَـٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

لما فرغ تعالىٰ من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر والإرشاد إلىٰ الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها أو في نقمة فيصبر عليها، كما جاء في الحديث: **(عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاءً إلا كان خيراً له، إن أصابته سرّاء فشكر كان خيراً له، وإن إصابته ضرّاء فصبر كان خيراً له)**.

وبيَّن تعالىٰ أن أجود ما يستعان به علىٰ تحمُّل المصائب: الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَىٰ الْخَاشِعِينَ﴾ وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزَبهُ أمر صلّىٰ.

والصبر صبران: صبرٌ علىٰ ترك المحارم والمآثم. وصبرٌ علىٰ فعل

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥).

الطاعات والقربات.

والثاني أكثر ثوابًا، لأنه المقصود، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل علىٰ الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يُسَلَّم عليهم إن شاء الله.

وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأوّلين والآخرين ينادي منادٍ: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة؟ فيقولون: إلىٰ أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلىٰ الجنة. فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: الصابرون. قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا علىٰ طاعة الله، وصبرنا علىٰ معصية الله حتىٰ توفانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنة فنِعْم أجر العاملين.

قلت: ويشهد لهذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ يخبر تعالىٰ أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم أن (**أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلىٰ قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك**

اطّلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يُتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تَرُدَّنا إلىٰ الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتىٰ نُقتل فيك مرة أخرىٰ، لما يرون من ثواب الشهادة. فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون).

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ : **(نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتىٰ يرجعه الله إلىٰ جسده يوم يبعثه)**[1] دلالةٌ لعموم المؤمنين أيضـًا، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفـًا لهم وتكريمـًا وتعظيمـًا.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

أخبر تعالىٰ أنه يبتلي عباده، أي: يختبرهم ويمتحنهم كما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧١)، والنسائي (٤/ ١٠٨)، وأحمد (٣/ ٤٥٥).

فتارة بالسرّاء وتارة بالضرّاء من خوف وجوع كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فإن الجائع والخائف كلٌّ منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: ﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ وقال هاهنا: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي: بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ أي: ذهاب بعضها ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: بأن لا تغلّ الحدائق والمزارع كعادتها، كما قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة.

وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فمن صبر أثابه، ومن قنط أحلَّ به عقابه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ الصابرين الذين شكرهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي: تسلَّوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم مُلك لله يتصرف في عبيده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالىٰ عما أعطاهم علىٰ ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: ثناءٌ من الله عليهم ورحمة.

قال سعيد بن جبير: أي: أَمَنَةٌ من العذاب.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نِعْمَ العِدْلان ونِعْمت العلاوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ فهذان العِدْلان ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة، وهي: ما توضع بين العدلين، وهي: زيادة في الحمل، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديثُ كثيرة:

ففي صحيح مسلم[1] عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللَّهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيراً منها**). قالت أُمُ سلمة: فلما توفي أبو سَلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه: رسول الله ﷺ.

وروىٰ الإمام أحمد[2] عن أبي سنان قال: دفنتُ ابنـًا لي، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني، فأخرجني وقال لي: ألا أبشِّرك؟ قلت: بلىٰ. قال: قال رسول الله ﷺ : (**قال الله: يا ملك الموت**

(١) أخرجه مسلم (٩١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٥)، وحسنه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (١٤٠٨).

قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتًا في الجنة وسَمُّوه: بيت الحمد).

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أرأيتِ قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قلت: فوالله ما علىٰ أحد جناح أن لا يتطوف بهما! فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بئسما قلت يا بن أختي إنها لو كانت علىٰ ما أوّلتها عليه كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يُهِلُّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنَّا كنّا نتحرَّج أن نطَّوَّف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قالت عائشة: ثم قد سَنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

أخرجاه في الصحيحين[1].

وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال لي: وإن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس إلا من ذكرت عائشة كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء. ورواه البخاري عن عائشة بنحو ما تقدم[2].

وفي صحيح مسلم[3] من حديث جابر الطويل وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلىٰ الركن، فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: **(أبدأ بما بدأ الله به)** وفي رواية النسائي: **(ابدؤا بما بدأ الله به)**.

وروىٰ الإمام أحمد[4] حبيبة بنت أبي تجْرَاة قالت: رأيت رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٤٣)، ومسلم (١٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٦٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢١)، وصححه الألباني في الإرواء (١٠٧٢).

ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعىٰ حتىٰ أرىٰ ركبتيه من شدة السعي وهو يقول: (**اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي**).

وقد بيّن الله تعالىٰ أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله؛ أي: مما شرع الله تعالىٰ لإبراهيم الخليل في مناسك الحج، وقد جاء في حديث ابن عباس: أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر، وترددادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك، وليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة علىٰ ولدها هنالك ونفذ ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله عزّ وجل، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، متذلّلة، خائفة، وجِلة، مضطرة، فقيرة إلىٰ الله عزّ وجل حتىٰ كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرّج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذلّه وحاجته إلىٰ الله، في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلىٰ الله عزّ وجل ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلىٰ الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلىٰ مماته، وأن يحوِّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلىٰ حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام.

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما علىٰ قدر الواجب، ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات، حكىٰ ذلك الرازي، وعزىٰ الثالث إلىٰ الحسن البصري، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يُثيب علىٰ القليل بالكثير، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه و﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البيّنة علىٰ المقاصد الصحيحة، والهدىٰ النافع للقلوب من بعد ما بيّنه الله تعالىٰ لعباده من كتبه التي أنزلها علىٰ رسله.

قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء علىٰ صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له

كل شيء حتىٰ الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشدُّ بعضها بعضًا عن أبي هريرة وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: (**من سُئِل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**)[1]. والذي في الصحيح[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لولا آية في كتاب الله، ما حدَّثت أحداً شيئًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ الآية.

ثم استثنىٰ الله تعالىٰ من هؤلاء من تاب إليه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دلالة علىٰ أن الداعية إلىٰ كفر، أو بدعة إذا تاب إلىٰ الله تاب الله عليه، وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالىٰ عمن كفر به واستمر به الحال إلىٰ مماته بأنّ ﴿عَلَيۡهِمۡ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (١١٨).

﴿لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللّعنة البالغة لهم إلىٰ يوم القيامة ثم اللعنة المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ فيها؛ أي: لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يُفَتَّر عنهم ساعة واحدة ولا يغير بل هو متواصل دائم، فنعوذ بالله من ذلك.

فصل

لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرة في القنوت وغيره، فأما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلىٰ أنه لا يلعن لأنّا لا ندري بما يختم الله له، واستدل بعضهم بالآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾.

وقالت طائفة أخرىٰ: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي، ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتىٰ به سكران فيحده، فقال رجل: لعنه الله، ما أكثر ما يؤتىٰ به، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله[1]، فدلَّ علىٰ أن من لا يُحِب الله ورسوله يُلْعَن، والله أعلم.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

يخبر تعالىٰ عن تفرُّده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو، وأنه الرحمن الرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة.

وفي الحديث[1] عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿الم اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم﴾.

ثم ذكر الدليل علىٰ تفرُّده بالإلهية بتفرُّده بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة علىٰ وحدانيته، فقال:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في لطافتها وارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وهو حسن لغيره.

وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالىٰ: ﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالىٰ: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر بحمل السُفُن من جانب إلىٰ جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلىٰ هؤلاء وما عند أولئك إلىٰ هؤلاء ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: علىٰ اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أي: فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب،

وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرِّقه، وتارة تصرفه.

ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبًا، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة، وتارة دبوراً وهي: غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة.

وقد صنَّف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبَسْطُ ذلك يطول ههنا، والله أعلم.

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: سائرٌ بين السماء والأرض، يسخَّر إلىٰ ما يشاء الله من الأراضي والأماكن، كما يصرفه تعالىٰ.

﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: في هذه الأشياء دلالات بيِّنة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأوْلِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ

جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

يذكر تعالىٰ حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة حيث جعلوا له أنداداً؛ أي أمثالاً ونظراء، يعبدونهم معه ويحبُّونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ندّ له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **(أن تجعل لله ندّاً وهو خلقك)**[1].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه.

ثم توعَّد تعالىٰ المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذٍ أن القوة لله جميعاً؛ أي أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه وَأَنَّ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٧)، ومسلم (٨٦).

اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ يقول: لو علموا ما يعانونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل علىٰ شركهم وكفرهم لانتهوا عمَّا هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرِّي المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ تبرأتْ منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فيقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ .

وتبرَّأ منهم الجن أيضـًا، وتنصَّلوا من عبادتهم لهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانـًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ

صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقال الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معْدِلاً ولا مصْرِفًا.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي: لو أن لنا عودة إلىٰ الدار الدنيا حتىٰ نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحّد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه كما أخبر تعالىٰ عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ ولهذا قال تعالىٰ:

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾

لما بيّن تعالىٰ أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقلُّ بالخلق، شرع يبيِّن أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام: الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً؛ أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضلّ اتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها، مما كان زيّنه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حمَار الذي في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: يقول الله تعالىٰ: (**إني خلقتُ عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم**)[1].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ تنفيرٌ عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

قال قتادة والسُدِّي في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قال: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة؛ كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك، وهو القول علىٰ الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضـًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لهؤلاء الكفرة من المشركين: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أي: ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالىٰ منكراً عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية.

ثم ضرب لهم تعالىٰ مثلاً، كما قال تعالىٰ: ﴿لِلَّذِينَ لاَ يؤْمِنُونَ

بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ فقال: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل، كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها: بل إذا نعق بها راعيها -أي: إذا دعاها إلىٰ ما يرشدها- لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وغيرهم نحو هذا.

وقوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ أي: صُمٌّ عن سماع الحق ﴿بُكۡمٌ﴾ لا يتفوّهون به ﴿عُمۡيٌ﴾ عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

يقول تعالىٰ آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالىٰ، وأن يشكروه تعالىٰ علىٰ ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سببٌ لتقبّل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء

والعبادة، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(أيها الناس إن الله طيب لا يقبل، إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلىٰ السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنَّىٰ يستجاب لذلك؟)**[1].

ولما امتنَّ الله تعالىٰ عليهم برزقه وأرشدهم إلىٰ الأكل من طيِّبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو قد عدا عليها السَبُع.

وكذلك حرَّم عليهم لحم الخنزير سواء ذُكِّي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه إما تغليبًا أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس علىٰ رأي.

وكذلك حرَّم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله، وهو ما ذُبِح علىٰ غير اسمه تعالىٰ من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

ينحرون له.

وذكر القرطبي عن ابن عطيَّة أنه نقل عن الحسن البصري: أنه سُئِل عن امرأة عملت عُرْساً لِلُعَبها فنحرت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل الجزور، لأنها ذُبحت لصنم. وأورد القرطبي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها سُئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيُهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذُبِح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه.

ثم أباح تعالىٰ تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ أي: في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ أي: في أكل ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

وحكىٰ القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ أي: أُكْرِه علىٰ ذلك بغير اختياره. قال مسروق: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات، دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة، قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكيا الهراسي رفيق الغزالي في الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا. كالإفطار للمريض في رمضان ونحو ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ

وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما يشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلاّ تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتُحف علىٰ تعظيمهم إياهم، فخشوا -لعنهم الله- إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاءً علىٰ ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدىٰ واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله، بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدَّقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عونـًا له علىٰ قتالهم، وباءوا بغضب علىٰ غضب، وذمَّهم الله في كتابه في غير ما موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ

مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ وهو: عَرَضُ الحياة الدنيا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق، ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **(الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم)**[1].

وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ وذلك لأنه تعالىٰ غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم، أي: يُثْني عليهم ويمدحهم، بل يُعذِّبهم عذاباً أليماً.

ثم قال تعالىٰ مخبراً عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ أي: اعتاضوا عن الهدىٰ، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتّباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم.

﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ أي: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو

(١) أخرجه مسلم (٢٠٦٥).

ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يخبر تعالىٰ أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم علىٰ ذلك من شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال، عياذاً بالله من ذلك.

وقيل: معنىٰ قوله: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: فما أدومهم لعمل المعاصي التي تُفْضي بهم إلىٰ النار.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد، لأن الله أنزل علىٰ رسوله محمد ﷺ وعلىٰ الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يُكَذِّبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته، فاستهزأوا بآيات الله المنزَّلة علىٰ رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾.

﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى

ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

اشتملت هذه الآية علىٰ جُمَلٍ عظيمة، وقواعدَ عميمة، وعقيدةٍ مستقيمة، فإن الله تعالىٰ لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلىٰ بيت المقدس ثم حوَّلهم إلىٰ الكعبة، شقّ ذلك علىٰ نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالىٰ بيان حكمته في ذلك وهو: أن المراد إنما هو طاعة الله عزّ وجل، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجّه واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوىٰ والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلىٰ جهة من المشرق أو المغرب برّ ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾.

قال مجاهد: ولكن البرَّ ما ثبت في القلوب من طاعة الله عزّ وجل.

وقال الضحَّاك: ولكن البر والتقوىٰ أن تؤدوا الفرائض علىٰ وجوهها.

وقال الثوري: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلُّها.

وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عُرَىٰ الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو، وصدَّق بوجود الملائكة الذين هم سَفَرَةٌ بين الله ورسله.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء علىٰ الأنبياء، حتىٰ ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن علىٰ ما قبله من الكتب الذي انتهىٰ إليه كل خير، واشتمل علىٰ كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلىٰ خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي: أخرجه وهو محب له راغب فيه، نصَّ علىٰ ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعـًا: (**أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنىٰ وتخشىٰ الفقر**).

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ وقال: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ نمطٌ آخرُ أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم مُحِبُّون له.

وقوله: ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهم قرابات الرجل وهم أولىٰ من أُعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث: **(الصدقة علىٰ المساكين صدقة، وعلىٰ ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة)** فهم أولىٰ الناس بك وبِبِرِّكَ وإعطائك، وقد أمر الله تعالىٰ بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز.

﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة علىٰ التكسب.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم، فيُعْطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وخلَّتهم.

وفي الصحيحين[1] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ، قال: **(ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي تردُّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىٰ يغنيه ولا يُفطن له فيُتصدق عليه).**

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦)، ومسلم (١٠٣٩).

﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغتْ نفقته فيُعطىٰ ما يوصله إلىٰ بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيُعطىٰ ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي ينزل بالمسلمين. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان.

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيُعطَون من الزكوات والصدقات.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وهم المكاتَبون الذين لا يجدون ما يؤدُّونه في كتابتهم، وسيأتي الكلام علىٰ كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالىٰ.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وأتمَّ أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها علىٰ الوجه الشرعي المرضي.

وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُحْتمل أن يكون المراد به: زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ وقول موسىٰ لفرعون: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لاَ

يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

ويُحْتمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين، إنما هو التطوع والبر والصلة والله أعلم.

وقوله: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وعكس هذه الصفة النفاق، كما صحَّ في الحديث: **(آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)** وفي الحديث الآخر: **(وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)**.

وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ أي: في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام: وهو الضرَّاء.

﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ أي: في حال القتال والتِقاء الأعداء، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وغيرهم.

وإنما نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ المدح والحث علىٰ الصبر في هذه الأحوال لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حقَّقوا الإيمان القلبي

بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالىٰ: كُتِبَ عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، فاقتلوا حُرَّكم بحُرِّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدىٰ من قبلكم وغيَّروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك قريظة والنضير، كانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النضري القرظي لا يُقْتل به، بل يفادىٰ بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قُتِل، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر ضِعْف دية قريظة، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المجرمين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغياً، فقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم.

وروي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: النفس بالنفس.

مسألة: مذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يُقْتلون بالواحد، قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم.

ولا يُعْرَف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع.

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد.

وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ يقول: فمن ترك له من أخيه شيء يعني: أخذ الدية بعد استحقاق الدم، وذلك العفو.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ إذا قَبِلَ الدية. ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ يعني: من

القاتل من غير ضررٍ ولا مَعْكٍ يعني المدافعة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ يقول تعالىٰ: إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوماً علىٰ الأمم قبلكم من القتل أو العفو. قال ابن عباس: كُتِبَ علىٰ بني إسرائيل القصاص في القتلىٰ، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ذلك تحقيق مما كتب علىٰ من كان قبلكم ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

وقال قتادة: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ رحم الله هذه الأُمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو وليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أُمِروا به، وجُعِل لهذه الأُمة القصاص والعفو والأرش.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يقول تعالىٰ: فمن قَتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد.

وقوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ﴾ يقول تعالىٰ: وفي شرع القصاص لكم، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة لكم وهي بقاء المُهَج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان في ذلك حياة للنفوس، وفي الكتب

المتقدمة: القتل أنفىٰ للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ أفصح وأبلغ وأوجز.

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولي العقول والأفهام والنُهىٰ، لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه، والتقوىٰ اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة علىٰ الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبًا علىٰ أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصيةٍ ولا تَحَمُّلِ مِنَّة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: (**إن الله قد أعطىٰ كل ذي حق حقه، فلا**

وصية لوارث)[1].

قال محمد بن سيرين: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتىٰ أتىٰ هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسِخت هذه الآية.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين، فأنزل الله آية الميراث، وبقي الأقارب الذين لا ميراث لهم، فيستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ : **(ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)** قال ابن عمر: ما مرَّتْ عليَّ ليلةٌ منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي[2].

والآيات والأحاديث بالأمر ببرِّ الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً.

وقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: إن ترك مالاً.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٢١)، والنسائي (٢/ ١٢٨)، وابن ماجه (٢٧١٢)، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين[1] أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: لا قال: فبالشطر؟ قال: لا قال: فالثلث؟ قال: (**الثلث والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**).

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لو أن الناس غضّوا من الثلث إلىٰ الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: الثلث والثلث كثير[2].

وقوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ يقول تعالىٰ: فمن بدّل الوصية وحرَّفها، فغيَّر حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولىٰ.

﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغير واحد: أي قد وقع أجر الميت علىٰ الله، وتعلَّق الإثم بالذين بدَّلوا ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي: قد اطلع علىٰ ما أوصىٰ به الميت وهو عليم بذلك وبما بدَّله الموصَىٰ إليهم.

وقوله: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأبو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤٣)، ومسلم (١٦٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤٣).

العالية ومجاهد: الجنف: الخطأ.

وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثـًا بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصىٰ ببيعه الشيء الفلاني محاباة أو أوصىٰ لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئـًا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر، أو متعمداً آثمـًا في ذلك، فللوصي والحالة هذه، أن يصلح القضية ويعدل في الوصية علىٰ الوجه الشرعي، ويعدل عن الذي أوصىٰ به الميت إلىٰ ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به جمعـًا بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف هذا فبينه علىٰ النهي عن ذلك ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخاطبـًا للمؤمنين من هذه الأمَّة، وآمراً لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوِقاع، بنيَّةٍ خالصةٍ لله عزّ وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق

الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه علىٰ من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ ولهذا قال ههنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين: **(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء)**[1].

ثم بيّن مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم، لئلا يشق علىٰ النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نُسخ بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه.

ثم بيَّن حُكْم الصيام علىٰ ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدَّةَ ذلك من أيام أُخر.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠).

وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد أخرج البخاري ومسلم[1] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل رمضان، كان من شاء صام ومن شاء أفطر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال معاذ رضي الله عنه: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا، وهكذا روىٰ البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾: كان من أراد أن يفطر يفتدي، حتىٰ نزلت الآية التي بعدها فنسختها.

وعن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليست منسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٠٢)، ومسلم (١١٢٥).

رواه البخاري[1].

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جِدَة؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لِسِنِّه، فلم يجب عليه فدية كالصبي، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها وهو أحد قولي الشافعي. والقول الثاني -وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء- أنه يجب عليه فديةٌ عن كل يوم. وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدما كبر كل يوم، مسكينًا -خبزاً ولحمًا- وأفطر.

ومما يلتحق بهذا المعنىٰ الحامل والمرضع إذا خافتا علىٰ أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران ولا فدية ولا قضاء، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه، ولله الحمد والمِنَّة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٠٥).

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾

يمدح تعالىٰ شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، فقد نزل جملة واحدة إلىٰ بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في ليلة القدر منه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَة﴾ ثم نزل بعد مُفَرَّقًا بحسب الوقائع علىٰ رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ هذا مدحٌ للقرآن الذي أنزله الله هدىٰ لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه.

﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ أي: دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة علىٰ صحة ما جاء به من الهدىٰ المنافي للضلال، والرشد المخالف للغيِّ، ومفرِّقًا بين الحق والباطل والحلال والحرام.

وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ هذا إيجاب حتم علىٰ من شهد استهلال الشهر، أي: كان مقيمًا في البلد حتىٰ دخل شهر رمضان،

وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة.

ونسخت هذه الآيةُ الإباحةَ المتقدمةَ لمن كان صحيحًا مقيمًا أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه.

ولما حتَّم الله الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر أن يفطر بشرط القضاء، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان علىٰ سفر؛ أي في حالة السفر، فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عِدَّةُ ما أفطره في السفر من الأيام، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

إحداها: أنه **قد** ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلىٰ وجوب الإفطار في السفر لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

والصحيح قول الجمهور: أن الأمر في ذلك علىٰ التخيير وليس بحتم، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان، قال: فمنّا الصائم ومنّا المفطر، فلم يعب الصائم علىٰ المفطر، ولا المفطر علىٰ الصائم، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذي ثبت

من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين[1] عن أبي الدرداءرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتىٰ إن كان أحدنا ليضع يده علىٰ رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة.

الثانية: قالت طائفةٌ منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم. وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سُئل عن الصوم في السفر، فقال: (**من أفطر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه**) وقال في حديث آخر: (**عليكم برخصة الله التي رخص لكم**).

وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام أفأصوم في السفر؟ فقال: (**إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر**) وهو في الصحيحين[2].

وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأىٰ رجلاً قد ظلل عليه فقال: ما هذا؟ قالوا: صائم، فقال: (**ليس من البر الصيام في السفر**) أخرجاه[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٥)، ومسلم (١١٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٤٢)، ومسلم (١١٢١).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

ثم قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾. قال أبو التياح: سمعت أنس بن مالك يقول: إن رسول الله ﷺ قال: **(يسّروا ولا تعسّروا وسكِّنوا ولا تنفّروا)** أخرجاه في الصحيحين[1].

وفي الصحيحين[2] أيضـًا: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسىٰ حين بعثهما إلىٰ اليمن: **(بشّرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تعسّرا، وتطاوعا ولا تختلفا)**.

وفي السنن والمسانيد[3]: أن رسول الله ﷺ قال: **(بُعثت بالحنيفية السمحة)**.

ومعنىٰ قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: إنما رخَّص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (١٧٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٣) من حديث عائشة، وله طرقٌ ترفعه إلىٰ درجة الحُسن.

آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾ وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

ولهذا جاءت السُنَّة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات. قال ابن عباس رضي الله عنهما: **(ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير)**.

ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ حتىٰ ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلىٰ وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يُشْرع التكبير في عيد الفطر! والباقون علىٰ استحبابه علىٰ اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

قال أعرابيٌّ للنبي ﷺ يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

وعن الحسن قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ النبي ﷺ : أين ربنا؟ فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية.

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نهبط واديًا، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا مِنَّا، فقال: (**يا أيها الناس، اربعوا علىٰ أنفسكم، فإنكم لا تدْعون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله**) أخرجاه في الصحيحين[2].

قلت: وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١/ ٣٦٤، ١٦٦٧)، وابن جرير (٢/ ١٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

مُحْسِنُونَ﴾ وقوله لموسىٰ وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ والمراد من هذا أنه تعالىٰ لا يخيِّب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيعُ لديه تعالىٰ، فعن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: (**ما من مسلم يدعو الله عزّ وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الأخرىٰ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا: إذن نُكْثِر؟ قال: الله أكثر**) رواه الإمام أحمد.

وروىٰ الإمام مالك[1] عن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (**يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**) وأخرجاه في الصحيحين، وهذا اللفظ هو لفظ البخاري رحمه الله وأثابه الجنة.

وعن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: (**لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**) قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: يقول: (**قد دعوتُ وقد دعوتُ فلم أرَ يستجاب لي، فيستحسر عند ذلك ويَدَعُ الدعاء**) رواه مسلم[2].

وفي ذِكْره تعالىٰ هذه الآية الباعثة علىٰ الدعاء متخللة بين أحكام

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٥).

الصيام إرشادٌ إلىٰ اجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فِطْر، كما روىٰ الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (**للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة، فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا**)[1].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾

هذه رخصةٌ من الله تعالىٰ للمسلمين، ورفعٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلىٰ صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتىٰ نام أو صلىٰ العِشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلىٰ الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، والرفث هنا هو: الجماع.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣)، والحاكم (١/ ٤٢٢)، وهو حسن لغيره.

وقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني هُنَّ سكنٌ لكم وأنتم سكنٌ لهن.

وقال الربيع بن أنس: هنّ لحافٌ لكم وأنتم لحافٌ لهنَّ.

قال الشاعر:

إذا ما الضجيعُ ثنىٰ جيدها تداعتْ فكانت عليه لباسا

وحاصله: أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسُّه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويُحرجوا.

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلىٰ مثلها، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً وكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتىٰ امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلقُ فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رأته نائماً قالت: خيبة لك، أنمت؟ فلما انتصف النهار غُشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً.

ولفظ البخاري[1]: سمعتُ البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قول الله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة، حرَّمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتىٰ يفطروا، وأن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وأن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتىٰ صلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بذلك، فأنزل الله عند ذلك: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني بالرفث: مجامعة النساء ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ، قال: قام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا رسول الله، إني أردت أهلي البارحة علىٰ ما يريد الرجل من أهله، فقالت: إنها قد نامت فظننتها تعتلُّ فواقعتها، فنزل في عمر: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٠٨).

﴿لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ يعني: تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العِشاء.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ يعني: جامعوهنّ.

﴿وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ يعني: الولد.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ فكان ذلك عفواً من الله ورحمة.

وقوله: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ أباح تعالىٰ الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلىٰ أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبَّر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللَّبْس بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ كما جاء في الحديث عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ عمدت إلىٰ عقالين: أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوت إلىٰ رسول الله فأخبرته بالذي صنعت، فقال: (**إن وسادك إذاً لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل**).

أخرجاه في الصحيحين[1].

ومعنىٰ قوله: (**إن وسادك إذاً لعريض**) أي: إن كان ليسع لوضع الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب، وهكذا وقع في رواية البخاري مفسراً بهذا أن النبي قال له: (**إن وسادك إذاً لعريض، إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك**).

وجاء في بعض الألفاظ: (**إنك لعريض القفا**) ففسّره بعضهم بالبلادة، وهو ضعيف، بل يرجع إلىٰ هذا لأنه إذا كان وساده عريضـًا فقفاه أيضـًا عريض، والله أعلم.

وفي إباحته تعالىٰ جواز الأكل إلىٰ طلوع الفجر دليل علىٰ استحباب السحور، لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، ولهذا وردت السنّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث علىٰ السحور. ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : (**تسحروا فإن في السحور بركة**).

وفي صحيح مسلم[2] عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ : (**إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**).

---

(١) أخرجه البخاري (١٩١٦)، ومسلم (١٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٩٦).

وروىٰ الإمام أحمد[1] عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ : **(السحور أكلةُ بركةٍ فلا تَدَعُوه، ولو أن أحدكم تجرع جرعة من ماء، فإن الله وملائكته يصلون علىٰ المتسحرين)**.

وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتىٰ ولو بجرعة ماء تشبهاً بالآكلين، ويستحب تأخيره إلىٰ قريب انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين[2] عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلىٰ الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية.

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ : **(لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخّروا السحور)**[3].

وورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه: الغداء المبارك.

وحكىٰ أبو جعفر بن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها!

قلت: وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢، ٤٤) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٢١)، ومسلم (١٠٩٧).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٧).

لمخالفته نص القرآن في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ وقد ورد في الصحيحين[1] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: **(لا يمنعنَّكم أذان بلال عن سحوركم، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتىٰ تسمعوا أذان ابن أُم مكتوم فإنه لا يؤذن حتىٰ يطلع الفجر)** هذا لفظ البخاري.

مسألة:

ومِنْ جَعْلِه تعالىٰ الفجرَ غايةً لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يُستدل علىٰ أنه من أصبح جنبًا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنبًا من جماع ثم يغتسل ويصوم.

وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكمًا شرعيًا، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : **(إذا أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم)**[2].

(١) أخرجه البخاري (١٩١٨)، ومسلم (١٠٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٥٤)، ومسلم (١١٠٠).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: يقول الله عزَّ وجل: (**إن أحبَّ عبادي إليَّ أعجلهم فطراً**)[1].

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾.

قال ابن أبي حاتم: روي عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحاك والسُدِّي والربيع بن أنس ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف.

وهو الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلىٰ منزله لحاجة لا بدَّ منها فلا يحلُّ له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من الأكل أو قضاء الغائط، وليس له أن يقبّل امرأته ولا أن يضمّها إليه، ولا يشتغل بشيء سوىٰ اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مارٌّ في طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابها، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ومنها ما هو مختلف فيه، وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، ولله الحمد والمنة.

ولهذا كان الفقهاء المصنفون يُتْبِعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نبَّه علىٰ ذِكر الاعتكاف بعد ذِكر الصوم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٠٠، ٧٠١)، وحسَّنه.

وفي ذِكْره تعالىٰ الاعتكاف بعد الصيام إرشادٌ وتنبيهٌ علىٰ الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت في السُنَّة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتىٰ توفَّاه الله عزَّ وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه في الصحيحين من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي الصحيحين[1] أن صفية بنت حُيي رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلىٰ منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتىٰ تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، وفي رواية: تواريا؛ -أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه- فقال لهما ﷺ: (**علىٰ رِسْلكما إنها صفية بنت حُيَي**) أي: لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حُيَي أي: زوجتي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: (**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرىٰ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا أو قال: شرًّا**).

قال الشافعي رحمه الله: أراد عليه السلام أن يُعَلّم أمته التبرِّي من التهمة في محلها، لئلا يقعا في محذور، وهما كانا أتقىٰ لله من أن يظنا بالنبي

(١) أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

ﷺ شيئـًا، والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يُدْني إليّ رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارَّة.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي بينَّاه وفرضناه وحدَّدناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرَّمنا وذكرنا غاياته ورُخَصه وعزائمه = حدود الله؛ أي شرَّعها الله وبيَّنها بنفسه، فلا تقربوها؛ أي لا تجاوزوها وتتعدوها.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ أي: كما بيّن الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام علىٰ لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أي: يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيّنة، فيجحد المال ويخاصم إلىٰ الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثمٌ آكلٌ الحرام.

وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسُّدِّي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم.

وقد ورد في الصحيحين[1] عن أُم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: (**ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها**).

فدلَّت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث علىٰ أن حكم الحاكم لا يغيّر الشيء في نفس الأمر، فلا يُحِل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يُحرِّم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق ما في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلىٰ المحتال وزره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعونه

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٨)، ومسلم (١٧١٣).

وتروجونه في كلامكم.

قال قتادة: اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرىٰ وتشهد به الشهود، والقاضي بَشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قضي له بباطل أن خصومته لم تنقض حتىٰ يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضي علىٰ المبطل للمحق بأجود مما قضىٰ به للمبطل علىٰ المحق في الدنيا.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

قال العوفي، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سأل الناس رسول الله عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ يعلمون بها حلَّ دَيْنهم وعِدَّة نسائهم ووقت حجِّهم.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ قال البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية، أتوا البيت من ظهره فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ رواه

البخاري[1].

وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره، لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوَّره من قبل ظهره، فقال الله تعالىٰ لذلك: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: اتقوا الله، فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه لعلكم تفلحون غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم بأعمالكم علىٰ التمام والكمال.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

قال أبو العالية في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٢).

من قاتله، ويكف عمن كف عنه، حتىٰ نزلت سورة براءة.

وفي هذا نظر، لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أي: كما يقاتلونكم فقاتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ أي: لتكن همتكم منبعثة علىٰ قتالهم، كما همتهم منبعثة علىٰ قتالكم، وعلىٰ إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصًا.

وقد حُكي عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أول آية نزلت في القتال بعد الهجرة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا..﴾ الآية، وهو الأشهر وبه ورد الحديث.

وقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أي: قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل وغيرهم، ولهذا جاء في صحيح مسلم[1] عن بُريدة أن رسول الله

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

ﷺ كان يقول: (**اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا وليداً**).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: (**اخرجوا باسم الله، قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا ولا تَغُلُّوا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا الوِلدان ولا أصحاب الصوامع**) رواه الإمام أحمد[1].

وفي الصحيحين[2] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وُجِدَتِ امرأةٌ في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبَّه تعالىٰ علىٰ أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصدِّ عن سبيله، أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل، ولهذا قال: (**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**) قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل.

وقال أبو العالية ومجاهد وعكرمة في قوله تعالىٰ (**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**) يقول: الشرك أشد من القتل.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤).

وقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ كما جاء في الصحيحين: (**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة، ولم يَحِلَّ لي إلا ساعة من نهار وإنها ساعتي هذه، حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة، لا يُعْضَد شجرُه ولا يختلي خلاه، فإنْ أحدٌ ترخّص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم**) يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة وقُتِلتْ رجالٌ منهم عند الخندمة.

وقيل: فتحها صلحًا لقوله: من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يقول تعالىٰ: ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعًا للصيال، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة علىٰ القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن مالأهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ، ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلىٰ الإسلام والتوبة، فإن الله غفور رحيم يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالىٰ لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه. ثم أمر الله بقتال الكفار: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: شرك. قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: يكون دين الله هو الظاهر العالي علىٰ سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء؛ أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)**[1].

وفي الصحيحين[2]: **(أُمرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم علىٰ الله)**.

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول تعالىٰ: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكُفُّوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا علىٰ الظالمين، وهذا معنىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

قول مجاهد: لا يقاتل إلا من قاتل. أو يكون تقديره: فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك.والمراد بالعدوان ههنا: المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم: الذي أبىٰ أن يقول لا إله إلا الله.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

قال ابن عباس والضحاك وقتادة وعطاء وغيرهم: لما سار رسول الله ﷺ، معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلىٰ البيت وصدوه بمن معه من المسلمين، في ذي القعدة وهو شهر حرام حتىٰ قاضاهم علىٰ الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾.

ولهذا لما بلغ النبيَّ ﷺ وهو مُخيَّمٌ بالحديبية أن عثمان قُتِل، وكان قد بعثه في رسالة إلىٰ المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفًا وأربعمائة تحت

الشجرة، علىٰ قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يُقْتل، كفَّ عن ذلك وجنح إلىٰ المسالمة والمصالحة، فكان ما كان.

وقوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أمرٌ بالعدل حتىٰ في المشركين، كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ وروىٰ عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ نَزَلَ بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نُسِخ بآية القتال بالمدينة.

وقد ردَّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل هذه الآية مدنية بعد عمرة القضية، وعزا ذلك إلىٰ مجاهد رحمه الله. وقد أطلق ههنا الاعتداء علىٰ الاقتصاص من باب المقابلة كما قال عمرو بن أُم كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أمرٌ لهم بطاعة الله وتقواه، وإخبارُه بأنه تعالىٰ مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

قال حذيفة: نزلت ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ في النفقة. رواه البخاري[1].

وروىٰ ابن أبي حاتم عن أبي عمران قال: حَمَلَ رجلٌ من المهاجرين بالقسطنطينية علىٰ صف العدو حتىٰ خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقىٰ بيده إلىٰ التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتىٰ فشا الإسلام وكثُر أهله، وكنا قد آثرناه علىٰ الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلىٰ أهلينا وأولادنا، فنقيم فيهما، فنزلت فينا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة: الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد.

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه[2] وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، وقال الحاكم: علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠٩٦٢)، والحاكم (٢/ ٢٧٥).

﴿بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله ولا تلقي بيدك إلىٰ التهلكة.

وعن أبي جُبيرٍ قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابتهم سَنَةٌ فأمسكوا عن النفقة في سبيل الله، فنزلت ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾.

وقال الحسن البصري: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ قال: هو البخل.

ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوىٰ به المسلمون علىٰ عدوهم، والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلىٰ مقامات الطاعة، فقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾

لمَّا ذكر تعالىٰ أحكام الصيام، وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ أي: صَدِدتم عن الوصول إلىٰ البيت، ومُنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء، علىٰ أن الشروع في الحج والعمرة مُلْزِم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء، وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام، مستقصىٰ ولله الحمد والمنة.

وعن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾: أن تُحْرِم من دويرة أهلك. وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس، وعن سفيان الثوري أنه قال: تمامهما أن تحرم من أهلك، لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتىٰ إذا كنتَ قريباً من مكة، قلت: لو حججتُ أو اعتمرتُ، وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره.

وقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ قال: من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يَحِلَّ حتىٰ يتمهما تمام الحج يوم النحر، إذا رمىٰ جمرة العقبة، وزار البيت وطاف بالصفا والمروة فقد حلَّ.

وقوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست؛ أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلىٰ البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا، فلم يفعلوا، حتىٰ خرج فحلق رأسه ففعل الناس، وكان منهم من قصَّر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: (**رحم الله المُحلِّقين**) قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: (**والمُقصِّرين**).

وقد ثبت في الصحيحين[1] عن عائشة رَضِوَاللَّهُعَنْهَا أن رسول الله ﷺ دخل علىٰ ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: (**حجِّي واشترطي أن محلِّي حيث حبستني**).

فذهب من ذهب من العلماء إلىٰ صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث، وقد علَّق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب علىٰ صحة هذا الحديث، قال البيهقي وغيره من الحفاظ: وقد صحَّ ولله الحمد.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (١٢٠٧).

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ شاة.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الهدي من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمعز والضأن.

وروىٰ ابن أبي حاتم عن عائشة وابن عمر رضي الله عنهم: أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل والبقر.

قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية، فإنهم لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة مِنَّا في بقرة.

والدليل علىٰ صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي؛ أي: مهما تيسّر مما يسمىٰ هديـًا، والهدي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عمِّ رسول الله ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أهدىٰ النبي ﷺ مرة غنمـًا[1].

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ﴾ معطوف علىٰ قوله:

(١) أخرجه البخاري (١٧٠١)، ومسلم (١٣٢١).

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ وليس معطوفـًا علىٰ قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلىٰ الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلىٰ الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنـًا، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعـًا، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حَلُّوا من العمرة، ولم تَحِلَّ أنت من عمرتك؟ فقال: **(إني لبَّدتُ رأسي وقلَّدتُ هديي، فلا أَحِلَّ حتىٰ أنحر)**[1].

وقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال عبد الله بن معقل: قعدت إلىٰ كعب بن عجرة في هذا المسجد -يعني مسجد الكوفة- فسألتُه عن فدية من صيام، فقال: حُمِلْتُ إلىٰ النبي ﷺ والقمل يتناثر علىٰ وجهي، فقال: ما كنت أرىٰ أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا، قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك فنزلت فيّ خاصة وهي لكم عامة. رواه البخاري.

(١) أخرجه البخاري (١٥٦٦)، ومسلم (١٢٢٩).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ قال: إذا كان ﴿أَوْ﴾ فأَيُّهُ أخذتَ أجزأ عنك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة، وعامة العلماء أنه مُخيَّر في هذا المقام، إن شاء صام وإن شاء تصدق بفَرَق، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مُدَّان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها علىٰ الفقراء، أيَّ ذلك فعل أجزأه.

ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلىٰ الأفضل فالأفضل، فقال: أنسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكلٌ حَسَنٌ في مقامه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فإذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعـًا بالعمرة إلىٰ الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين.

كما دلَّتْ عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواة من يقول: تمتع رسول الله ﷺ، وآخر يقول: قرن، ولا خلاف أنه ساق هديـًا، وقال تعالىٰ:

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر.

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ يقول تعالىٰ: فمن لم يجد هديـًا فليصم ثلاثة أيام في الحج؛ أي: في أيام المناسك.

قال العلماء: والأَولىٰ أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء، أو من حين يحرم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره لقوله: ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾.

فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وهما للإمام الشافعي أيضـًا، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر كما في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدي.

وقوله: ﴿ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إذا رجعتم إلىٰ رِحالكم في الطريق.

والقول الثاني: إذا رجعتم إلىٰ أوطانكم. قال ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إذا رجع إلىٰ أهله. وروي ذلك عن سعيد بن جبير وأبي العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة

والحسن وقتادة والزهري والربيع بن أنس. وحكىٰ ابن جرير الإجماع علىٰ ذلك.

وقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيتُ بعيني، وسمعتُ بأذني، وكتبتُ بيدي، وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وقال: ﴿وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ وقال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وقيل: معنىٰ (كاملة) الأمر بإكمالها وإتمامها. اختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أُحِلَّت لأهل الآفاق وحُرِّمَت عليكم، إنما يقطع أحدكم واديـًا، أو قال: يجعل بينه وبين الحرم واديـًا، ثم يُهِلُّ بعمرة.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما أمركم ونهاكم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

اختلف أهل العربية في قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلىٰ هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحًا، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ وبأنه أحد النُسُكَين، فصحَّ الإحرام به في جميع السنة كالعمرة.

وذهب الشافعي رحمه الله، إلىٰ أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به.

والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مرويٌّ عن ابن عباس وجابر، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ وهو أن وقت الحج أشهرٌ معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلَّ علىٰ أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة.

وقال ابن خزيمة في صحيحه[1]: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢٥٩٦)، وصحَّحه ابن كثير كما ترىٰ.

خالد الأحمر، عن شعبة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، فإن من سُنَّة الحج أن يحرم في أشهر الحج. وهذا إسناد صحيح، وقول الصحابي: من السُنَّة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيَّما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه.

وقوله: ﴿أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ قال البخاري[1]: قال ابن عمر رضي الله عنهما: هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة.

وهذا الذي علّقه البخاري بصيغة الجزم، رواه ابن جرير عن ابن عمر رضي الله عنهما، وإسناده صحيح.

قلت: وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وغيرهم، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله، واختاره ابن جرير، وقال: وصحّ إطلاق الجمع علىٰ شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: زرتُه العام ورأيتُه اليوم، وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم. وقال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ وإنما تعجَّل في يوم ونصف.

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٤١٩) تعليقًا.

وقال الإمام مالك بن أنس والشافعي في القديم: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله. وهو رواية عن ابن عمر أيضـًا.

وفائدةُ مذهبِ مالك: أنه إلىٰ آخر ذي الحجة بمعنىٰ أنه مختصٌّ بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر.

وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما، أنهما كان يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ أي: أوجب بإحرامه حجـًا، فيه دلالة علىٰ لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه.

قال ابن جرير: أجمعوا علىٰ أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام.

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذا التكلم به بحضرة النساء.

وروىٰ ابن جرير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه كان يحدو وهو محرم، وهو يقول:

وهـنّ يـمشـــيـن بـنـا هَـمـيـســا   إن تصدُقِ الطيرُ نَنِكْ لَميسا

قال أبو العالية: فقلت: تتكلم بالرفث وأنت محرم؟ قال: إنما الرفث ما قيل عند النساء.

وقال عطاء: كانوا يكرهون العرابة، وهو التعريض بذكر الجماع وهو محرم.

وقال طاوس: هو أن يقول للمرأة: إذا حللتُ أصبتك، وكذا قال أبو العالية.

وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هي المعاصي.

وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وغيرهم.

وقال آخرون: الفسوق ههنا السباب. قاله ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسُدِّي، وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت في الصحيح[1]: (**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**) ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: (**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

والذين قالوا: الفسوق ههنا: هو جميع المعاصي معهم الصواب، كما نهىٰ تعالىٰ عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السَنَة منهياً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم آكد، ولهذا قال: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ وقال في الحَرَم: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقد ثبت في الصحيحين[1] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)**.

وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بيّنه الله أتم بيان، ووضحه أكمل إيضاح، كما قال مجاهد: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ قد بيَّن الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس.

وقال مالك في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ كانت قريش تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب، ويقول هؤلاء: نحن أصوب.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقِفون مواقف مختلفة

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

يتجادلون كلهم يدَّعي أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك.

وقال القاسم بن محمد: الجدال في الحجِّ أن يقول بعضهم: الحجُّ غداً، ويقول بعضهم: الحجُّ اليوم.

وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحجِّ.

والقول الثاني: أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة. فعن ابن عمر قال: الجدال في الحج السباب والمنازعة.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ قال: أن تماري صاحبك حتىٰ تُغْضِبه. وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وعكرمة وغيرهم.

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثَّهم علىٰ فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال ابن عباس قال: كان ناس يحجُّون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وعن عكرمة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلىٰ زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوىٰ إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لمَّا ذكر اللباس الحِسِّي نبّه مرشداً إلىٰ اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوىٰ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول والأفهام.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كانت عكاظ ومِجَنَّة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فتأثموا أن يتَّجروا في الموسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في مواسم الحج. رواه

البخاري[1].

وروىٰ أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كانوا يتّقون البيوع والتجارة في الموسم والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾.

عرفة موضع الوقوف في الحجِّ، وهي عمدة أفعال الحجِّ، ولهذا روىٰ الإمام أحمد وأهل السنن[3] بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(الحجُّ عرفات -ثلاثًا- فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منىٰ ثلاثة، فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه).**

ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلىٰ طلوع الفجر الثاني من يوم النحر، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلىٰ الظهر إلىٰ أن

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٣١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩، ٨٩٠)، والنسائي (٥/ ٢٦٤)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد (٤/ ٣٠٩، ٣٣٥)، وصحَّحه ابن كثير كما ترىٰ.

غربت الشمس، وقال: (**لتأخذوا عني مناسككم**)[1]. وقال في هذا الحديث: (**فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك**) وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله.

وذهب الإمام أحمد إلىٰ أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة.

وتُسمَّىٰ عرفات: المشعر الحرام، والمشعر الأقصىٰ، وإلال (علىٰ وزن هِلال) ويقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وبالمشعر الأقصىٰ إذا قصدوا لهُ ... إلالَ إلىٰ تلك الشراج القوابلِ

وقد جاء في حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم[2]: فلم يزل النبي ﷺ واقفًا -يعني بعرفة- حتىٰ غربت الشمس، وبدت الصُفرة قليلاً حتىٰ غاب القُرص، وأردف أُسامةَ خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتىٰ إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنىٰ: أيها الناس السكينة السكينة كلما أتىٰ جبلاً من الجبال أرخىٰ لها قليلاً حتىٰ تصعد حتىٰ أتىٰ المزدلفة، فصلىٰ بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبِّح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

طلع الفجر فصلىٰ الفجر، حتىٰ تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتىٰ أتىٰ المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفًا حتىٰ أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وفي الصحيحين[1] عن أُسامة بن زيدرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع؟ قال: كان يسير العَنَق، فإذا وجد فجوة نصَّ. والعَنَق هو انبساط السير، والنَّصُّ فوقه.

قال سفيان بن عيينة: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وهي الصلاتين جميعًا.

وعن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتىٰ إذا هبطت رواحلنا بالمزدلفة، قال: أين السائل عن المشعر الحرام، هذا المشعر الحرام.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: المشعر الحرام المزدلفة كلها.

وعن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سئل عن قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قال: فقال: هو الجبل وما حوله.

قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سُمِّيت المزدلفةُ المشعرَ الحرام، لأنها داخل الحرم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٦٦)، ومسلم (١٢٨٦).

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ تنبيه لهم علىٰ ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلىٰ مشاعر الحج علىٰ ما كان عليه إبراهيم الخليل عليه السلام.

ولهذا قال: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قيل: من قبل هذا الهُدىٰ، وقيل: القرآن، وقيل: الرسول، والكل متقارب ومتلازم وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾

ثُمَّ -ههنا- لعطف خبر علىٰ خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالىٰ أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلىٰ المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشًا فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنىٰ الحِلِّ، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وقُطّان بيته.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحُمْس، وكانت سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض

منها، فذلك قوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ رواه البخاري.

وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم، واختاره ابن جرير وحكىٰ عليه الإجماع، رحمهم الله.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ، كان إذا فرغ من الصلاة، يستغفر الله ثلاثـًا، وثبت في الصحيحين: أنه ندب إلىٰ التسبيح والتحميد والتكبير، ثلاثـًا وثلاثين.

وقد روىٰ ابن جرير ههنا حديث العباس بن مرداس السلمي في استغفاره ﷺ لأمته عشية عرفة، وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة.

وأورد ابن مردويه ههنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **(سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة)**[1].

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

وفي الصحيحين[1] عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله، علّمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: قل: **(اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)** والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

يأمر تعالىٰ بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها.

وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ اختلفوا في معناه:

فقال ابن جريج، عن عطاء: هو كقول الصبي أَبَّه أَمَّه. يعني: كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك.

---

(١)أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله علىٰ نبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ والمقصود منه الحثّ علىٰ كثرة الذكر لله عزّ وجل.

و﴿أَوۡ﴾ ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ وقوله: ﴿يَخشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ﴿فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ فليست ههنا للشك قطعًا، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالىٰ أرشد إلىٰ دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، وذَمَّ من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ أي: ما له في الآخرة من نصيب ولا حظ، وتضمَّن هذا الذمُ التنفيرَ عن التشبُّه بمن هو كذلك.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان قوم من الأعراب يجيئون إلىٰ الموقف فيقولون: اللَّهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام وِلادٍ حَسَن، لا

يذكرون من أمر الآخرة شيئًا، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرىٰ، فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هني، وثناء جميل، إلىٰ غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.

وأما الحسنة في الآخرة، فأعلىٰ ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة.

وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: من أُعطي قلبًا شاكراً، ولسانًا ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أُوتي في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النار.

ولهذا وردت السُنَّة بالترغيب في هذا الدعاء، فعن أنس بن مالكٍ قال: كان النبي ﷺ يقول: (**اللَّهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**) رواه البخاري[1].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ : (**هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجِّله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله، لا تطيقه! فهلَّا قلت:** ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ **قال: فدعا اللهَ فشفاه**). رواه مسلم[2].

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٢)، ومسلم (٢٦٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر.

وقال عكرمة: يعني: التكبير أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر الله أكبر.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب)**[1].

وعن نبيشة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: **(أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)** رواه مسلم[2].

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هي ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده اذبح في أيهن شئت، وأفضلها أولها.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يكبر في قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتىٰ ترتج منَىٰ تكبيراً، ويتعلق بذلك أيضـًا التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق.

وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: **(إنما جُعِلَ الطواف**

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٥/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري مسلم (١١٤١).

بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عزّ وجل)[1].

ولما ذكر الله تعالىٰ النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلىٰ سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والموقف، قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

قال السُدِّي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلىٰ رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك.

(١) أخرجه أبو داود (١٨٨٨).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خُبيبٍ وأصحابه الذين قُتِلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله ذَمَّ المنافقين ومَدْحَ خبيب وأصحابه بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم، وهذا قول قتادة ومجاهد وغير واحد، وهو الصحيح.

وأما قوله: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ فقرأه ابن محيصن (ويَشْهدُ اللهُ) بفتح الياء وضم الجلالة (علَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ) ومعناها: وإن أظهر لكم الجميل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ﴾.

وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنىٰ صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ الألَدُّ في اللغة الأعوج ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أي: عُوْجاً، وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب ويَزْوَرُّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**)[1].

وقال البخاري[2] عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: (**إنَّ أبغض الرجال إلىٰ الله الألَدُّ الخَصِم**).

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعي ههنا هو القصد، كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ﴾ أي: اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحِسِّي إلىٰ الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية: (**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار**).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٣)، ومسلم (٢٦٦٨).

فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار، وإهلاك النسل وهو نتاج الحيوانات، ولا قوام للناس إلا بهما.

وقال مجاهد: إذا سعىٰ في الأرض فساداً، مَنَعَ اللهُ القطرَ فهلك الحرث والنسل.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ أي: لا يحب مَنْ هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ أي: إذا وُعِظَ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتَّقِ الله وانْزِع عن قولك وفعلك وارجع إلىٰ الحق، امتنع وأبىٰ وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: هي كافيته عقوبة في ذلك.

ولما أخبر الله عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾

قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة: نَزَلَتْ في صُهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلىٰ طرف الحرة وقالوا له: ربح البيع فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبره عُمَرُ أن الله أنزل فيه هذه الآية.

ويُروَىٰ أن رسول الله ﷺ قال له: (**ربح البيع صهيب ربح البيع صهيب**) كما روىٰ ابن مردويه عن صُهيب، قال: لما أردت الهجرة من مكة إلىٰ النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صُهيب قدمت إلينا، ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك! والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي، فخلوا عني، فخرجت حتىٰ قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (**رَبِح صُهيب رَبِح صُهيب**) مرتين.

وأما الأكثرون فحملوا ذلك علىٰ أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ

الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

ولما حمل هشام بن عامر بين الصفَّين أنكر عليه بعض الناس، فردَّ عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

يقول الله تعالىٰ آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرىٰ الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك.

قال العوفي، عن ابن عباس ومجاهد وطاوس وغيرهم في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ يعني: الإسلام.

وقوله: ﴿كَآفَّةً﴾ قال مجاهد: أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

ومن المفسرين من يجعل قوله: ﴿كَآفَّةً﴾ حالاً من الداخلين؛ أي: ادخلوا في الإسلام كلكم، والصحيح الأول، وهو أنهم أُمروا أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام وهي كثيرة جداً ما

استطاعوا منها.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: اعملوا الطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فـ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز؛ أي: في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه ونقضه وإبرامه.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾

يقول تعالىٰ مهدداً للكافرين الذين كفروا بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ كما قال الله تعالىٰ: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ

الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

قال أبو العالية: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالىٰ يجيء فيما يشاء، وهي في بعض القراءة هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام وهي كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا﴾.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن بني إسرائيل: كم شاهدوا مع موسىٰ من آية بينة؛ أي: حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوىٰ، وغير ذلك من الآيات الدالات علىٰ وجود الفاعل المختار، وصِدْق من جَرَتْ هذه الخوارق علىٰ يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدلوا نعمة الله كفراً؛ أي: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

كما قال تعالىٰ إخباراً عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارِ﴾ ثم أخبر تعالىٰ عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذي رضوا بها، واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها من مصارفها التي أُمروا بها، مما يرضي الله عنهم وسخِروا من الذين آمنوا، الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلىٰ عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: (**ابن آدم أَنفق أُنفق عليك**)[١].

وقال النبي ﷺ: (**أنفق بلالُ ولا تخش من ذي العرش إقلالاً**)[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾.

وفي الصحيح[٣]: (**إن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم**

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٢)، ومسلم (٩٩٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا).

وفي الصحيح[1]: **(يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، وما لبستَ فأبليت، وما تصدقتَ فأمضيت؟ وما سوىٰ ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس).**

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم علىٰ شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

وقال قتادة: كانوا علىٰ الهدىٰ جميعًا فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشِّرين ومنذرين فكان أول من بعث نوحًا.

وقال العوفي، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يقول:

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٩).

كانوا كفاراً ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

والقول الأول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أصح سنداً ومعنىٰ، لأن الناس كانوا علىٰ ملة آدم حتىٰ عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم علىٰ ذلك إلا البغي من بعضهم علىٰ بعض ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بعلمه بهم وبما هداهم له.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: مِنْ خَلْقه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وله الحكمة والحجة البالغة.

وفي صحيح البخاري ومسلم[1] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول: **(اللَّهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم**

(١) هذا الحديث انفرد بإخراجه مسلم (٧٧٠) دون البخاري.

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم).

وفي الدعاء المأثور: (**اللَّهم أرنا الحق حقًا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إمامًا**)[1].

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

يقول تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ قبل أن تُبتلوا وتُختَبروا وتُمتحنوا كما فُعِل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب.

قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهما: ﴿ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الفقر.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ السقم.

---

(١) هذا الدعاء مأثورٌ عن عمر رضي الله عنه.

وقوله ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ زُلزلوا زلزالاً شديداً، وامتُحنوا امتحانـًا عظيمـًا، خوفـًا من الأعداء، كما جاء في الحديث الصحيح عن خبَّاب بن الأرتِّ، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: **(إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار علىٰ مفرق رأسه فيخلص إلىٰ قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال: والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون)**[1].

وقال الله تعالىٰ: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين﴾ وقد حصل في يوم الأحزاب جانب عظيم من هذا للصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

ولما سأل هِرَقلُ أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجال، يُدال علينا ونُدال عليه. قال: كذلك

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).

الرسل تبتلىٰ ثم تكون لها العاقبة.

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي: سُنَّتُهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ .

وقوله: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي يستفتحون علىٰ أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ ، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها، ولهذا قال: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وفي حديث أبي رزين: (**عَجِبَ ربك من قنوط عباده وقرب غيثه، فينظر إليهم قنِطِين، فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب**).

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ ﴾

معنىٰ الآية: يسألونك كيف ينفقون. قاله ابن عباس ومجاهد، فبيَّن لهم تعالىٰ ذلك، فقال: ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه. كما جاء الحديث: (أُمكَ وأباكَ وأُختكَ وأخاكَ، ثم أدناكَ أدناكَ).

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ أي: مهما

صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه وسيجزيكم علىٰ ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم مثقال ذرة.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

هذا إيجاب من الله تعالىٰ للجهاد علىٰ المسلمين أن يكفُّوا شرَّ الأعداء عن حوزة الإسلام.

قال الزُهري: الجهاد واجب علىٰ كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يعين، وإذا استُغيث أن يغيث، وإذا استُنفر أن ينفر، وإن لم يُحْتَجْ إليه قعد.

قلت: ولهذا ثبت في الصحيح[1]: (**من مات ولم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية**) وقال عليه السلام يوم الفتح: (**لا هجرة، ولكنْ جهاد ونية، وإذا استُنفرتم فانفروا**).

وقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أي: شديد عليكم ومشقة وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يُجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: لأن

(١) أخرجه مسلم (١٩١٠).

القتال يعقبه النصر والظفر علىٰ الأعداء.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئًا وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو علىٰ البلاد والحكم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾

قال العوفي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞ﴾ وذلك أنَّ النبي ﷺ بعث سرية وجعل عليها عبدالله بن

جحش، فلقوا عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادىٰ وأول ليلة من رجب، وأن أصحاب محمد ﷺ، كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادىٰ، وكانت أول رجب، ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه، فعيَّره المشركون بذلك، فقال الله تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وغير ذلك أكبر منه ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ ﴾ إخراجُ أهل المسجد الحرام أكبر، والشرك أشد منه.

قال ابن إسحاق: فلما تجلىٰ عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطىٰ فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ

﴿لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾

روىٰ الإمام أحمد[1] عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لما نزل تحريم الخمر، قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمر بيانـًا شافيـًا، فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدُعِي عمر، فقُرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانـًا شافيـًا، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادىٰ: أن لا يقربنَّ الصلاة سكران، فدُعي عمر، فقُرئت عليه فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانـًا شافيـًا، فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعي عمر، فقُرئت عليه فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وصححه الترمذي[2].

وقوله: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها تهضيم الطعام وإخراج الفضلات واللذة المطربة التي فيها، كما قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جاهليته:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٨/ ٢٨٦)، وصححه الإمام الترمذي والشيخ الألباني.

ونشــــربها فـتـتـركـنـا مـلـوكـًا وأُســـــداً لا يُـنَـهـنـهُـنـا اللـقـاء

ومن ذلك: بيعها والانتفاع بثمنها.

ولكن هذه المصالح لا توازي مضرتها ومفسدتها الراجحة، لتعلُّقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾.

ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر علىٰ البتات، ولم تكن مُصرِّحة بل مُعرِّضة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قُرئت عليه: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، حتىٰ نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة، وسيأتي الكلام علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ وبه الثقة.

قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة وغيرهم: هذه أول آية نزلت في الخمر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر.

قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال ابن عباس: العفو هو ما يفضل عن أهلك.

وعن الحسن قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾: ذلك ألا تُجْهِدَ مالَك ثم تقعد تسأل الناس.

وعن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال:

أنفقه علىٰ نفسك، قال: عندي آخر، قال: **أنفقه علىٰ أهلك،** قال: عندي آخر، قال: **أنفقه علىٰ ولدك،** قال: عندي آخر، قال: فأنت أبصر.»[1].

وأخرج مسلم[2] عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: (**ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك**).

وعنده أيضـًا[3] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : (**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىٰ، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ، وابدأ بمن تعول**).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: كما فصَّل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعده ووعيده، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يعني في زوال الدنيا

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩١) وقد ذكر المصنف -رحمه الله- أنه في صحيح مسلم، وليس كذلك.

(٢) أخرجه مسلم (٩٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٢٦)، ومسلم (١٠٣٤).

وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

وقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡ﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لما نزلت: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتىٰ يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

فقوله: ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾ أي: علىٰ حِدَة، ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ أي: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم في الدين، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ أي: يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح.

وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أي: ولو شاء الله لضيَّق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسَّع عليكم، وخفَّف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ﴾ بل قد جوّز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

هذا تحريم من الله عزّ وجل علىٰ المؤمنين، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾: استثنىٰ الله من ذلك نساء أهل الكتاب.

وقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ قال السُدِّي: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها، ثم فزع فأتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره خبرها، فقال له: ما هي؟ قال: تصوم

وتصلي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إلا الله، وأنك رسول الله، فقال: يا عبد الله هذه مؤمنة. فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقنَّها ولأتزوجنَّها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلىٰ المشركين، ويُنكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

وقد ثبت في الصحيحين[1] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: (**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تَرِبَتْ يداك**).

ولمسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**)[2].

وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: لا تزوجوا الرجالَ المشركينَ النساءَ المؤمنات، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أي ولَرجل مؤمن -ولو كان عبداً- خير من مشرك، وإن كان رئيساً سَرِّياً

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٧).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ أي: معاشرتهم ومخالطتهم، تبعث علىٰ حبِّ الدنيا واقتنائها وإيثارها علىٰ الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ أي: بشرعه وما أمر به وما نهىٰ عنه ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾

قال أنس بن مالك: كان اليهود إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبي ﷺ، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ حتىٰ فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ: اصنعوا كل شيء إلا النكاح، فبلغ ذلك اليهودَ فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا، إلا خالفنا فيه، فجاء أُسيد بن حضير وعبَّاد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهنَّ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتىٰ ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هديةٌ من لبن

إلىٰ رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاهما، فعرفا أن لم يجد عليهما. رواه مسلم[1].

فقوله: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ يعني الفرج، لقوله ﷺ: **(اصنعوا كل شيء إلا النكاح)** ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلىٰ أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج، لما روىٰ أبو داود عن بعض أزواج النبي ﷺ ، أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئًا يلقي علىٰ فرجها ثوبـًا.

قلت: ويحلُّ مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ ، يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن.

وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. وهذا لفظ البخاري، ولهما عن عائشة نحوه[2].

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه ندب وإرشاد

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠)، ومسلم (٢٩٣، ٢٩٤).

إلىٰ غشيانهن بعد الاغتسال.

وقوله: ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أي في الفرج ولا تعدوه إلىٰ غيره، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد اعتدىٰ.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ أي من الذنب وإن تكرَّر غشيانه ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين عن الأقذار والأذىٰ، وهو ما نُهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأتىٰ.

وقوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الحرث موضع الولد. ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ أي: كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث.

وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن إتيان النساء في الدبر.

قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله الدارمي في مسنده: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار أبي الحباب، قال: قلت: لابن عمر: ما تقول في الجواري أيحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكر الدبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به، وهذا إسناد صحيح

ونصٌّ صريح منه بتحريم ذلك. فكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلىٰ هذا المحكم.

فهذا هو الثابت عن ابن عمر رضي الله عنهما، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلِق علىٰ فعله الكفر. وهو مذهب جمهور العلماء.

وروىٰ الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن الإمام مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك!! **ولكنْ في الأسانيد ضعفٌ شديد**، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جَمَعَه في ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: مِنْ فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات، ولهذا قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ أي: فيحاسبكم علىٰ أعمالكم جميعها ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم.

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ

﴿بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالىٰ مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم علىٰ تركها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ فالاستمرار علىٰ اليمين آثمٌ لصاحبها من الخروج منها بالتكفير.

قال علي بن طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ قال: لا تجعلن عُرْضةً ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفِّر عن يمينك واصنع الخير.

وكذا قال مسروق والشعبي والنخعي ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري وغيرهم رحمهم الله.

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت في الصحيحين[1] عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ : **(إني والله إن شاء الله، لا أحلف علىٰ يمين فأرىٰ غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحلَّلتها).**

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

وثبت فيهما[1] أيضـًا أن رسول الله ﷺ، قال لعبد الرحمن بن سمرة: **(يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها، وإن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإذا حلفتَ علىٰ يمين فرأيتَ غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك)**.

وقوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي: لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري علىٰ لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **(من حلف فقال في حلفه: باللات والعزىٰ، فليقل: لا إله إلا الله)**[2].

فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألسنتهم قد أَلِفت ما كانت عليه من الحلف باللاَّت من غير قصد، فأُمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ في المائدة: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُّمُ الأَيْمَانَ﴾.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦٠)، ومسلم (١٦٤٧).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ قالت: هم القوم يتدارؤون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، بلىٰ والله، وكلا والله، يتدارؤون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف علىٰ الشيء وهو يعلم أنه كاذب، قال مجاهد وغيره: وهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُّمُ الأَيْمَانَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: غفور لعباده حليم عليهم.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلىٰ من نسائه شهراً.

فأما إن زادت المدة علىٰ أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر، إما أن يفيء أي: يجامع، وإما أن يطلِّق فيجبره الحاكم علىٰ هذا، وهذا لئلا يُضِرَّ بها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾

أي: يحلفون علىٰ ترك الجماع عن نسائهم.

﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلىٰ ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِمَا سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

هذا أمر من الله سبحانه وتعالىٰ للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت.

وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو علىٰ قولين: أحدهما: أن المراد بها الأطهار، والقول الثاني: أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضي العدة حتىٰ تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حبل أو حيض.

وقوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ تهديدٌ لهن علىٰ خلاف الحق، دلَّ هذا علىٰ أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ويتعذر إقامة البينة غالباً علىٰ ذلك، فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها، ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حُصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قُصِروا في الآية التي بعدها علىٰ ثلاث طلقات، صار للناس مطلقة بائن، ومطلقة غير بائن.

وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهنَّ علىٰ الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤدِّ كل واحد منهما إلىٰ الآخر، ما يجب

عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم[1] عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ ، قال في خطبته في حجة الوداع: (**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضربًا غير مبرح، ولهنَّ رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف**).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: في الفضيلة في الخَلْق والخُلُق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَىٰ النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيزٌ في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيمٌ في أمره وشرعه وقدره.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر علىٰ الزوجات قصرهم الله إلىٰ ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

وعن هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء ما دامت في العدة، وإن رجلاً من الأنصار غضب علىٰ امرأته، فقال: واللهِ لا آويكِ ولا أفارقكِ، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقكِ، فإذا دنا أجلكِ راجعتكِ، ثم أطلقكِ، فإذا دنا أجلكِ راجعتكِ. فذكرتْ ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾.

وقوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ أي: إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخيّر فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتىٰ تنقضي عدتها فتبين منك

وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضارّ بها.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتَّقِ الله في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهنَّ، ليفتدين منكم بما أعطيتموهنَّ من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ فأما إنْ وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها، فقد قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر علىٰ معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلها له، ولا عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾.

وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا

دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أَتَرُدِّين عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: **(اِقْبل الحديقة وطلقها تطليقة)** رواه البخاري[1].

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: هذه الشرائع التي شرعها لكم، هي حدود فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح: **(إن الله حدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها)**[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أي: حتىٰ يطأها زوج آخر في نكاح صحيح.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ سُئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها، أتحلُّ لزوجها الأول؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧٣).

(٢) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٣) وقد وصفه المصنِّف (ابن كثير) هنا بالحديث الصحيح.

قال: (**لا حتىٰ يذوق عسيلتها**) رواه مسلم[1].

فَصْلٌ

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبًا في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج.

فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلَّها للأول، فهذا هو المحلِّل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه ومتىٰ صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (**ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: هو المحَلِّل، لعن الله المحَلِّل والمحَلَّل له**).

وقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي: المرأة والزوج الأول ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: يتعاشرا بالمعروف.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه وأحكامه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ أي: يوضِّحها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) أخرجه مسلم (١٤٣٣).

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

هذا أمر من الله عزّ وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقًا له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها، أي: يرتجعها إلىٰ عصمة نكاحه، بمعروف وهو أن يُشهد علىٰ رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي: يتركها حتىٰ تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شنآن ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وغيرهم: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها، ضراراً لئلا تذهب إلىٰ غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت علىٰ انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ قال مسروق: هو الذي يُطلِّق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة.

وعن عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ قال: كان الرجل علىٰ عهد النبي ﷺ يقول للرجل: زوَّجتك ابنتي ثم يقول: كنت لاعبًا، ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعبًا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ قال رسول الله ﷺ: **(ثلاثٌ من قالهن لاعبًا أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق والعتاق والنكاح)**.

والمشهور في هذا: الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ : **(ثلاث جدهنَّ جد، وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة)** قال الترمذي: حسن غريب.

وقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: في إرساله الرسول بالهدىٰ والبينات إليكم ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: السُنَّة ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ أي: يأمركم وينهاكم ويتوعدكم علىٰ ارتكاب المحارم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذرون ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: فلا يخفىٰ عليه شيء من أموركم السِرِّيَّة والجهريَّة وسيجازيكم علىٰ ذلك.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهىٰ الله أن يمنعوها. وكذا قال مسروق النخعي والزهري والضحاك.

وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة علىٰ أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بدّ في النكاح من ولي، كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث: (**لا تزوج المرأةُ المرأةَ، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها**)[1].

وفي الأثر الآخر: (**لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل**)[2] وفي هذه المسألة نزاعٌ بين العلماء، محررٌ في موضعه من كتب الفروع، وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٨٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٨٨٠)، وأحمد (١/ ٢٥٠).

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته، ففي صحيح البخاري عن الحسن، أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتىٰ انقضت عدتها فخطبها، فأبىٰ معقل، فنزلت: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾.

وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه[1] وصححه الترمذي، ولفظه عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه زوَّج أخته رجلاً من المسلمين، علىٰ عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتىٰ انقضت عدتها، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لُكَع! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلىٰ بعلها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فلما سمعها معقل قال: سمعٌ لربي وطاعة، ثم دعاه، فقال: أزوجكَ وأكرمك.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿مَن كَانَ مِنكُمۡ﴾ أيها

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٨٧)، والترمذي (٢٩٨١).

الناس ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ أي: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه، في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء .

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: اتِّباعكم شرع الله، في ردِّ الموليات إلىٰ أزواجهن، وترك الحَمِيّة في ذلك، أزكىٰ لكم وأطهر لقلوبكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي: من المصالح، فيما يأمر به وينهىٰ عنه.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: الخيرة فيما تأتون، ولا فيما تذرون.

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

هذا إرشاد من الله تعالىٰ للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلىٰ أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

والقول بأن الرضاعة لا تُحَرِّم بعد الحولين، يروىٰ عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأُم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور، وهو مذهب الشافعي وأحمد ومالك في رواية.

وقد روي في الصحيحين[1] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها كانت ترىٰ رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وأَبَىٰ ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص، وهو قول جمهور العلماء.

وسيأتي الكلام علىٰ مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير، عند قوله تعالىٰ: ﴿وأُمَهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب علىٰ الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، فليس لها دفعه إذا ولدته حتىٰ تستقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالبـًا، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارَّة لأبيه، فلا يحلّ لها ذلك، كما لا يحلّ له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها،

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥٥).

ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه.

وقيل: عليه مثل ما علىٰ والد الطفل من الإنفاق علىٰ والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصىٰ ذلك ابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: فإن اتفق والدا الطفل علىٰ فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أنَّ انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبدَّ بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره.

وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر علىٰ الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلىٰ ما يصلحهما ويصلحه، كما قال في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا

سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: إذا اتفقت الوالدة والوالد علىٰ أن يستلم منها الولد إما لعذر منها أو العذر له، فلا جناح عليهما في بذله، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في جميع أحوالكم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ أي: فلا يخفىٰ عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفىٰ عنهن أزواجهن، أن يعتدِدْن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها: عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن[1] وصححه الترمذي: أن ابن مسعود سُئِل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها، ولم يدخل بها ولم يفرض لها، فتردَّدوا إليه شهراً في ذلك، فقال أقول فيها

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٠) وأبو داود (٢١١٤)، والترمذي (١١٤٥)، والنسائي (٦/ ١٢١)، وابن ماجه (١٨٩٦).

برأيي، فإن يك صوابـًا فمن الله، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: لها الصداق كاملاً.

وفي لفظ: لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث.

فقام معقل بن يسار الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: سمعت رسول الله ﷺ، قضىٰ به في بَرْوَع بنت واشق، ففرح عبد الله بذلك فرحـًا شديداً.

وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما، أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً، لاحتمال اشتمال الرحم علىٰ حمل، فإذا انتظر به هذه المدة، ظهر إن كان موجوداً، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما: إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومـًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح، فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد علىٰ المتوفىٰ عنها زوجها مدة عدتها.

لما ثبت في الصحيحين[1] عن غير وجه عن أُم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: (**لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد علىٰ ميت فوق ثلاث، إلا علىٰ زوج أربعة أشهر وعشراً**) وفي الصحيحين[2] أيضـاً عن أُم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن امرأة قالت: يا رسول الله، إني ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال: لا كل ذلك يقول: لا مرتين أو ثلاثـًا، ثم قال: (إنما هي أربعة أشهر وعشر، وقد كانت إحداكم في الجاهلية تمكث سنة قالت زينب بنت أُم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حفشـًا ولبست شر ثيابها، ولم تمسَّ طيبـًا ولا شيئـًا حتىٰ تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطىٰ بعرة فترمي بها، ثم تؤتىٰ بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به. فقلما تفتض بشيء إلا مات).

والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلىٰ الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن؟ فيه قولان.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٣٤)، ومسلم (١٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٣٦)، ومسلم (١٤٨٨).

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال العوفي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تُعَرِّضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال: التعريض أن يقول: إني أريد التزويج، وإني أحب امرأة مِنْ أمرها ومِنْ أمرها، يُعرِّض لها بالقول بالمعروف.

ورواه البخاري تعليقـًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هو أن يقول: إني أريد التزويج، وإن النساء لمِنْ حاجتي، ولوددتُ أن ييسِّر لي امرأة صالحة.

وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة والنخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهري وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفىٰ عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها.

فأما المطلقة الرجعية فلا خلاف في أنه لا يجوز التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وكقوله: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ ولهذا قال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ أي: في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ قال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره، فنهىٰ الله عن ذلك، وأحل الخطبة، والقول بالمعروف.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إني فيك لراغب ونحو ذلك.

وقال محمد بن سيرين: قلت لعَبيدة: ما معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾؟ قال: يقول لوليها: لا تسبقني بها، يعني: لا تزوجها حتىٰ

تعلمني.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ يعني: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتىٰ تنقضي العدة.

وقد أجمع العلماء علىٰ أنه لا يصح العقد في العدة.

وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ توعَّدهم علىٰ ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلىٰ إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته، ولم يقنطهم من عائدته، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

أباح تبارك وتعالىٰ طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاوس والنخعي وغيرهم: المَسّ النكاح.

بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مفوضة وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالىٰ بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، علىٰ الموسع قدره، وعلىٰ المقتر قدره.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: متعة الطلاق أعلاها الخادم، ودون ذلك الورِق، ودون ذلك الكسوة.

ومَتَّعَ الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروىٰ أن المرأة قالت: متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارق.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

تشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متىٰ كان قد سمىٰ لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمىٰ من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: النساء، عما وجب لها علىٰ زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ قال ابن عاصم: سمعت شريحاً يقول: سألني علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الذي بيده عقدة النكاح، فقلت له: هو ولي المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج.

قلت: هذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه، والثوري والأوزاعي، واختاره ابن جرير.

ومأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للوليّ، أن يهب شيئًا من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق.

والوجه الثاني: أن الذي بيده عقدة النكاح أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه. قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وروي عن علقمة والحسن وعطاء وغيرهم، وهومذهب مالك، وقول الشافعي في القديم: أنه الولي.

وقوله ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أقربهما للتقوىٰ الذي يعفو.

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ﴾ أي استعملوه ولا تُهملوه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفىٰ عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

يأمر تعالىٰ بالمحافظة علىٰ الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة علىٰ وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قلت: ثم أي؟ قال: برّ الوالدين، قال: حدثني بهنّ رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني[1].

وخص تعالىٰ من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطىٰ.

وقد اختلف السلف والخلف فيها؛ أي: صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ بلاغًا عن علي وابن عباس رضي الله عنهم.

وعن أبي رجاء العطاردي، قال: صلَّيت خلف ابن عباس الفجر، فقنتَ فيها ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطىٰ التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين. رواه ابن جرير.

وهذا هو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله، محتجًا بقوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح.

وقيل: إنها صلاة الظهر، قال ابن معبد: كنا جلوسًا عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلىٰ أُسامة فسألوه عن الصلاة الوسطىٰ، فقال: هي الظهر،

(١) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٥٩).

كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجير.

وقيل: إنها صلاة العصر، قال الترمذي والبغوي رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضي الماوردي: هو قول جمهور التابعين، وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر، وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: وهو قول جمهور الناس.

وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمىٰ بـ (كشف المغطىٰ في تبيين الصلاة الوسطىٰ) وقد نصَّ فيه: أنها العصر، وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأُم حبيبة وأُم سلمة وابن عمر، وابن عباس وعائشة علىٰ الصحيح عنهم، وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال القاضي الماوردي: والشافعي. وقال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبي حنيفة، وأبي يوسف ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكي رحمهم الله.

ذِكْرُ الدليل علىٰ ذلك:

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: (**شغلونا عن الصلاة الوسطىٰ، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً**) ثم صلاها

بين العشاءين المغرب والعشاء. رواه مسلم[1].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ : **(صلاة الوسطىٰ صلاة العصر)** أخرجه مسلم[2].

وروىٰ ابن جرير عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(الصلاة الوسطىٰ صلاة العصر)** وإسناده لا بأس به.

فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئًا، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ كما في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **(من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله)**[3].

وفي الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ ، قال: **(بكِّروا بالصلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله)**[4].

وقيل: إن الصلاة الوسطىٰ هي صلاة المغرب.

وقيل: إنها صلاة العِشاء.

وهذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلىٰ التي قبلها، وإنما المدار

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٦٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (٦٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٣).

ومعترك النزاع في الصبح والعصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعيَّن المصير إليها.

وقد روىٰ الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب الشافعي رحمه الله، أن الشافعي قال: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ بخلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولىٰ ولا تقلدوني، وكذا روىٰ الربيع والزعفراني وأحمد بن حنبل عن الشافعي، وقال موسىٰ أبو الوليد بن أبي الجارود عن الشافعي: إذا صحَّ الحديث وقلت قولاً، فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك. وهذا من سيادته وأمانته، وهذا نَفَسُ إخوانه من الأئمة، رحمهم الله ورضي الله عنهم أجمعين. آمين.

ومن هاهنا قطع القاضي الماوردي بأن مذهب الإمام الشافعي أن صلاة الوسطىٰ هي صلاة العصر، وإن كان قد نصَّ في الجديد وغيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه علىٰ هذه الطريقة جماعة من مُحَدِّثي المذهب، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أي: خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد علىٰ ابن مسعود حين سلّم عليه وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك وقال: (**إن في الصلاة لشغلاً**)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٩٩)، ومسلم (٥٣٧).

وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السُلَمي حين تكلم في الصلاة: (**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله**)[1].

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ لمَّا أمر تعالىٰ عباده بالمحافظة علىٰ الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها علىٰ الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلوا علىٰ أي حال كان رجالاً أو ركبانـًا؛ يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، كما قال مالك عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً علىٰ أقدامهم، أو ركبانـًا مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرىٰ ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. ورواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ مسلم.

وهذا من رُخَص الله التي رخَّص لعباده ووضْعِهِ الآصار والأغلال عنهم.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إذا كانت المسايفة فليومئ برأسه

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

حيث كان وجهه، فذلك قوله: ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾.

وقال البخاري[1]: باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو.
وقال الأوزاعي: إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا علىٰ الصلاة، صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا علىٰ الإيماء أخَّروا الصلاة حتىٰ ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتىٰ يأمنوا.

وقال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَضرْتُ مناهضةَ حصن تُستَرَ عند قضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا علىٰ الصلاة، فلم نصلِّ إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسىٰ، ففُتح لنا. قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أقيموا صلاتكم كما أُمِرْتُم، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: مثل ما أنعم عليكم وهداكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ كما روىٰ البخاري عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرىٰ، فَلِمَ تكتبها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغير شيئًا منه من مكانه.

ومعنىٰ هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نُسِخَ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتُها مثبتةً في المصحف كذلك بعدها، فأنا أُثْبِتُها حيث وجدتُها.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفىٰ عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة، فتنسخها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج.

وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استدل بهذه الآية، مَنْ ذهب من العلماء، إلىٰ وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضًا لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعي رحمه الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده، فيما أمركم ونهاكم عنه، بينه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تفهمون وتتدبرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا

﴿حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾

روىٰ وكيع بن الجراح في تفسيره عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضـًا ليس بها موت، حتىٰ إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: مُوتوا فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾.

وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع علىٰ وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أي: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه القصة عبرة ودليل، علىٰ أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء، طلبـًا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعـًا في آن واحد.

ومن هذا القبيل، الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خرج إلىٰ الشام حتىٰ إذا كان بسرغ، لقيه أمراء

الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام.. فذكر الحديث، فجاءه عبدالرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه**) فحمد اللهَ عُمَرُ ثم انصرف[1].

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي: كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنُّبه، لا يقرب أجلاً ولا يباعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مُقدَّر مُقنَّن لا يُزاد فيه ولا يُنقص منه، كما قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.

وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول علىٰ أعدائه: أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه، أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدتُ كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت علىٰ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩).

فراشي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.

يعني: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف علىٰ ذلك، ويتألم أن يموت علىٰ فراشه.

وقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ يحث تعالىٰ عباده علىٰ الإنفاق في سبيل الله، وقد كرر تعالىٰ هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث النزول أنه يقول تعالىٰ: (**مَنْ يُقرض غير عديم ولا ظلوم؟**).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله عزَّ وجل ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرِني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عزَّ وجل حائطي، فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها. قال فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عزّ وجل[1].

وقوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾ رُوي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره من السلف: هو النفقة في سبيل الله.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٦) وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ١١٣١).

وقوله: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ الآية، وسيأتي الكلام عليها.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ أي: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرازق، يضيق علىٰ من يشاء من عباده في الرزق، ويوسعه علىٰ آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾

قال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل -بعد موسىٰ عليه السلام- علىٰ طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم علىٰ منهج التوراة، إلىٰ أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا

غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة، والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثًا لخلفهم عن سلفهم إلىٰ موسىٰ الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم علىٰ الضلال حتىٰ استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذوا التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها لعلَّ الله يرزقها غلامًا يكون نبيًا لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عزّ وجل أن يرزقها غلامًا، فوهبها الله غلامًا، فسمته: شمويل؛ أي سمع الله دعائي، ومنهم من يقول: شمعون، وهو بمعناه، فشبَّ ذلك الغلام، ونشأ فيهم، وأنبته الله نباتًا حسنًا، فلما بلغ سن الأنبياء أوحىٰ الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضًا قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكًا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه، ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾ أي: وقد أُخذت منا البلاد وسُبيت الأولاد، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي: ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾

أي: لما طلبوا من نبيهم أن يعيِّن لهم ملكـًا منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: كيف يكون ملكـًا علينا ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وهذا اعتراض منهم علىٰ نبيهم وتعنُّت، وكان الأولىٰ بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عيَّنته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أي: وهو مع هذا، أعلم منكم، وأنبل، وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي: أتمّ علمـًا وقامة منكم، ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه

ونفسه ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ أي: هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم، أن يَرُدَّ الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قيل: معناه: فيه وقار وجلالة.

قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: فيه ما يعرفون من آيات الله فيسكنون إليه.

وقوله: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: عصاه، ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة والسُدِّي والربيع بن أنس وعكرمة، وزاد: والتوراة.

وقوله: ﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتىٰ وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون.

قال السُدِّي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ أي: علىٰ صدقي فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

يقول تعالىٰ مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذٍ فيما ذكره

السُدِّي ثمانين ألفـًا، فالله أعلم، أنه قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أي: مختبِركم بنهر.

قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ أي: فلا بأس عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

قال البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر علىٰ عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلاثمائة. رواه البخاري.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عَدَد ولا عُدَد. ولهذا قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ

جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾

أي: لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا أي: أنزل علينا صبراً من عندك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوِّجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفىٰ له ثم آلَ المُلك إلىٰ داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي المُلك الذي كان بيد طالوت ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ أي: مما يشاء الله من العلم الذي اختصَّه به ﷺ ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ

ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: ذو مَنٍّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضًا، وله الحكم والحكمة والحجة علىٰ خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

ثم قال تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي: بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم.

﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

يخبر تعالىٰ أنه فضَّل بعض الرسل علىٰ بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ وقال ههنا: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ يعني موسىٰ ومحمداً ﷺ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبا ن عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأىٰ النبيُّ ﷺ الأنبياءَ في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عزَّ وجل.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: الحجج والدلائل القاطعات علىٰ صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني: أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ أي: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره، لهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (٢٥٤)

يأمر تعالىٰ عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير،

ليدّخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلىٰ ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ أي: لا يُباع أحد من نفسه ولا يفادي بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا، ولا تنفعه خلة أحد، يعني: صداقته بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾: أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وقوله: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مبتدأٌ محصورٌ في خبره، أي: ولا ظالم أظلم ممن وافىٰ الله يومئذٍ كافراً، وقد روىٰ ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يُقل: والظالمون هم الكافرون.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، وقد صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ، بأنها أفضل آية في كتاب الله.

فعن أُبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ ، سأله: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم، فردَّدها مراراً، ثم قال: آية الكرسي، قال: (**ليهنكَ العلم أبا المنذر**) رواه مسلم[1].

وقد ذكر البخاري[2] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذتُه وقلت: لأرفعنَّكَ إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إني محتاج وعليَّ عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليتُ عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة ما فعل أسيركَ البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنكَ إلىٰ رسول الله ﷺ قال: دعني فأنا محتاج وعليّ عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ : **يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟** قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله. قال: أما أنه قد كذبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنكَ إلىٰ رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١).

تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ حتىٰ تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: **ما فعل أسيرك البارحة؟** قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلَّيتُ سبيله. قال: وما هي؟ قال لي: إذا أويت إلىٰ فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وقال لي: لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح -وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير- فقال النبي ﷺ: **أما إنه صدقكَ وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟** قلت: لا. قال: **ذاك شيطان.**

رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم.

حديثٌ في اشتمالها علىٰ اسم الله الأعظم:

روىٰ الإمام أحمد[1] عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: إن فيهما اسم الله الأعظم. وكذا رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٥/ ٥٨٤).

حديث آخر في معنىٰ هذا:

عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة، وآل عمران وطه)**[1]. قال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق: أما البقرة فـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَىُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وفي آل عمران وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

حديث آخر عن أبي أُمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة:

عن أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ : **(من قرأ دُبَر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت)**[2] رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه من حديث محمد بن حمير وهو الحمصي، من رجال البخاري أيضـًا، فهو إسناد علىٰ شرط البخاري.

وهذه الآية مشتملةٌ علىٰ عشْرِ جُمَلٍ مستقلة:

فقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبارٌ بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ٱلۡحَىُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ أي: الحيُّ في نفسه، الذي لا يموت أبداً، المُقيْم لغيره. وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ: (القيَّام) فجميع الموجودات مفتقرة إليه،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (١/ ٥٠٦).

(٢) أخرجه النسائي (٩٩٢٨)، وابن السني (١٢١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٧٢).

وهو غني عنها، لا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، شهيد علىٰ كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفىٰ عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سِنَةٌ ولا نوم.

فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ أي: لا تغلبه سِنَةٌ وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأنه أقوىٰ من السِنَة.

وفي الصحيح[1] عن أبي موسىٰ، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال: (**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه**).

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إخبارٌ بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه، كقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

فَرْدًا﴾.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ وكقوله: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وهذا من عِظمته وجلاله وكبريائه عزَّ وجل، أنه لا يتجاسر أحدٌ علىٰ أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: (**آتي تحت العرش فأخِرُّ ساجداً، فيَدَعُني ما شاء الله أن يَدَعَني. ثم يقال: ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع، قال: فيَحُدَّ لي حدَّاً فأُدخلهم الجنة**)[1].

وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ دليلٌ علىٰ إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ أي: لا يطَّلع أحد من علم الله علىٰ شيء إلا بما أعْلَمه الله عزَّ وجل وأطْلَعه عليه. ويُحتمل أن يكون المراد: لا يطَّلعون علىٰ شيءٍ من علم ذاته وصفاته، إلا بما أطْلَعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣).

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ روىٰ ابن جرير عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش.

وروىٰ وكيع في تفسيره عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يَقْدر أحدٌ قدره. وقد رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلَّت علىٰ ذلك الآثار والأخبار.

وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يُثْقِلُهُ ولا يُكْرِثُهُ حفظ السموات والأرض ومَنْ فيهما ومَنْ بينهما، بل ذلك سهلٌ عليه، يسيرٌ لديه، وهو القائم علىٰ كل نفس بما كسبت، الرقيب علىٰ جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب علىٰ كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ كقوله: وهو الكبير المتعال.

وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها طريقة السلف الصالح: أَمِرُّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

يقول تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: لا تُكْرِهوا أحداً علىٰ الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح، جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلىٰ أن يُكْرَه أحد علىٰ الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه علىٰ بينة، ومن أعمىٰ الله قلبه وختم علىٰ سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهـًا مقسوراً.

وقد ذهب طائفةٌ كثيرةٌ من العلماء، أن هذه محمولة علىٰ أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية.

وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، وإنه يجب أن يُدْعىٰ جميع الأممُ إلىٰ الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبىٰ أحد منهم الدخول فيه، ولم يَنْقَدْ له أن يبذل الجزية، قوتل حتىٰ يُقْتَل، وهذا معنىٰ الإكراه، قال الله تعالىٰ: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وفي الصحيح[1]: (**عجب ربك من قوم يقادون إلىٰ الجنة في السلاسل**) يعني: الأسارىٰ الذين يُقْدَم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يُسْلِمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة.

وقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحَّد الله فعبده وحده، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد ثبت في أمره، واستقام علىٰ الطريق المثلىٰ، والصراط المستقيم.

وقوله: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: فقد استمسك من الدين بأقوىٰ سبب، وشبَّه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾.

قال مجاهد: العروة الوثقىٰ: الإيمان. وقال السُدِّي: الإسلام. وقال أنس بن مالك: القرآن. وقال الضحَّاك: هي لا إله إلا الله. وقال سالم بن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١٠).

أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها.

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾أي لا انقطاع لها دون دخول الجنة.

وروىٰ البخاري ومسلم[1] عن محمد بن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فصلىٰ ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتَّبَعْتُه حتىٰ دخل منزله، فدخلتُ معه فحدثته، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلتَ المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لِمَ؟ إني رأيت رؤيا علىٰ عهد رسول الله ﷺ قصصتُها عليه، رأيت كأني في روضة خضراء، وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني مِنْصَف -وهو الوصيف- فقال: اصعد، فصعدت حتىٰ أخذتُ بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظتُ وإنها لفي يدي. فأتيتُ رسول الله ﷺ فقصصتُها عليه، فقال: **(أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقىٰ، أنت علىٰ الإسلام حتىٰ تموت)**

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٣)، ومسلم (٢٤٨٤).

قال: وهو عبد الله بن سلام.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾

يخبر تعالىٰ أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلىٰ نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزيِّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويُخْرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلىٰ الكفر والإفك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾.

ولهذا وحَّدَ تعالىٰ لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة، كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرُّده وتشعُّبه.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾

هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه: هو نمرود ملك بابل.

قال مجاهد: مَلَكَ الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: نمرود وبُخْتنصَّر، والله أعلم.

ومعنىٰ قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي: بِقَلْبكَ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ أي: وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون ثَمَّ إلهٌ غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وما حمله علىٰ هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبُّره وطولُ مُدَّته في الملك، ولهذا قال: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ وكان طَلَبَ من إبراهيم دليلاً علىٰ وجود الربّ الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: إنما الدليل علىٰ وجوده، حدوث هذه الأشياء، المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل علىٰ وجود الفاعل المختار، ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الربُّ الذي أدعو إلىٰ عبادته وحده لا شريك له. فعند ذلك قال

المُحَاجُّ وهو النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ وذلك أني أوتىٰ بالرجلين، قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيُقْتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يُقْتل، فذلك معنىٰ الإحياء والإماتة.

والظاهر -والله أعلم- أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدىٰ به فرعون في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ولهذا قال له إبراهيم لما ادَّعىٰ هذه المكابرة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أي: إذا كنتَ كما تدَّعي من أنك تحيي وتميت، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهاً كما ادَّعيت تحيي وتميت، فأتِ بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر علىٰ المكابرة في هذا المقام، بُهِتَ، أي: أُخْرِسَ فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يلهمهم حجةً ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

وهذا التنزيل علىٰ هذا المعنىٰ أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلىٰ المقام الثاني انتقال من دليل إلىٰ

أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة رديَّة وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبيّن بطلان ما ادّعاه نمرود في الأول والثاني، ولله الحمد والمنة.

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾

﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ اختلفوا في هذا المارِّ مَنْ هو؟ فعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: هو عُزَيْر. حكاه ابن جرير عن ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم، وهو القول المشهور.

وقال مجاهد بن جبر: هو رجل من بني إسرائيل.

وقيل: هو الخضر عليه السلام.

وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مَرَّ عليها بعد تخريبِ بُخْتنصَّر لها وقتلِ أهلها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي: ليس فيها أحد، من قولهم:

خوت الدار، تخوي خُويّا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها علىٰ عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة، وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وذلك لِمَا رآىٰ من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العَوْد إلىٰ ما كانت عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، وتراجع بنو إسرائيل إليها، فلما بعثه الله عزَّ وجل بعد موته، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلىٰ صنع الله فيه: كيف يحيي بدنه، فلما استقل سويـًا قال الله له، أي بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله في آخر النهار، فلما رأىٰ الشمس باقية ظنَّ أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير، فوجده كما تقدم لم يتغيَّر منه شيء، لا العصير استحال، ولا التين حمض ولا أنتن، ولا العنب تعفَّن ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ أي: كيف يحييه الله عزّ وجل وأنت تنظر ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: دليلاً علىٰ المعاد ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ أي: نرفعها فيركب بعضها علىٰ بعض.

فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنا عالم بهذا، وقد رأيتُه عيانـًا، فأنا أعلم أهل زماني بذلك.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابـًا، منها: أنه لما قال لنمرود: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أحبَّ أن يترقىٰ من علم اليقين بذلك إلىٰ عين اليقين، وأن يرىٰ ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾.

وقوله: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اختلف المفسِّرون في هذه الطيور الأربعة ما هي، ولا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُهِمٌّ لنصَّ عليه القرآن.

وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: قطِّعْهن، قاله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره.

فذكروا أنه عمد إلىٰ أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزَّأهن أجزاء، وجعل علىٰ كل جبل منهن جزءاً وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عزّ وجل أن

يدعوهنّ، فدعاهنَّ كما أمره الله عزَّ وجل، فجعل ينظر إلىٰ الريش يطير إلىٰ الريش، والدم إلىٰ الدم، واللَّحم إلىٰ اللَّحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلىٰ بعض، حتىٰ قام كل طائر علىٰ حِدَتِه، وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها.

ولهذا قال: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عزيزٌ لا يغلبه شيء، ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه العظيم القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

روىٰ ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال: التقىٰ عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أيُّ آية في القرآن أرجىٰ عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا..﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكنْ أنا أقول: قول الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ فرضي من إبراهيم قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ قال: فهذا لِمَا يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان. ورواه الحاكم في المستدرك[1] ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

---

(١) مستدرك الحاكم (١/ ٦٠).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالىٰ لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله.

وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: الجهاد والحج يُضَعَّفُ الدرهم فيهما إلىٰ سبعمائة ضعف.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلىٰ أن الأعمال الصالحة ينمِّيها الله عزّ وجل لأصحابها، كما ينمِّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة.

وقد وردت السُّنَّة بتضعيف الحسنة إلىٰ سبعمائة ضعف.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **(كلُّ عملِ ابن آدم يضاعَفُ؛ الحسنةُ بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جُنَّة، الصوم جُنَّة)**. رواه مسلم[(1)].

وقوله ههنا: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

يمدح تبارك وتعالىٰ الذين ينفقون أموالهم في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منـًا علىٰ من أعطوه، فلا يَمُنُّون به علىٰ أحد بقول ولا بفعل.

وقوله: ﴿وَلَآ أَذًى﴾ أي: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهـًا يُحْبِطون به ما سلف من الإحسان.

ثم وعدهم الله تعالىٰ الجزاء الجزيل علىٰ ذلك، فقال: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ثوابهم علىٰ الله لا علىٰ أحد سواه ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة.

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: علىٰ ما خَلَّفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلىٰ ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ﴾ أي: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ أي: عفوٌ وغَفْرٌ عن ظلمٍ قوليٍ أو فعلي ﴿خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتۡبَعُهَآ أَذًى﴾.

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم.

وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المنِّ في الصدقة، ففي صحيح

مسلم[1] عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ : **(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنَّان بما أعطىٰ، والمسبل إزاره، والمُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب)**.

ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المنِّ والأذىٰ، فما يفي ثوابُ الصدقةِ بخطيئة المنِّ والأذىٰ، ثم قال تعالىٰ: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لا تُبْطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ كما تبطل صدقة من راءىٰ بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليُشكر بين الناس أو يقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نَظَرِهِ عن معاملة الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾.

ثم ضرب تعالىٰ مثل ذلك المرائي بإنفاقه فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أي: فترك الوابلُ ذلك الصفوان صلداً أي: أملس يابسًا، أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال

(١) أخرجه مسلم (١٠٦).

فيما يرىٰ الناس كالتراب، ولهذا قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

وهذا مثل المؤمنين المُنْفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك، ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: وهم متحقِّقون متثبِّتون أن الله سيجزيهم علىٰ ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنىٰ قوله عليه السلام في الحديث الصحيح المتفق علىٰ صحته[1]: (**من صام رمضان إيمانـًا واحتسابـًا**) أي: يؤمن أن الله شَرَعَه، ويحتسب عند الله ثوابه.

قال الشعبي: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: تصديقـًا ويقينـًا، وكذا قال قتادة وابن زيد، واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ ، أي: كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض.

(١) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ أي: بالنسبة إلىٰ غيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ وهو: اللَّين من المطر، أي: هذه الجنة بهذه الربوة لا تُمْحِل أبداً، لأنها إن لم يصبها وابل فطلّ، وأيّـًا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينمّيه، كل عامل بحسبه، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: لا يخفىٰ عليه من أعمال عباده شيء.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

روىٰ البخاري عن عبيد بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومـًا لأصحاب النبي ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ﴾ قالوا: الله أعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضُرِبت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له

الشيطان فعمل بالمعاصي، حتىٰ أغرق أعماله. رواه البخاري[1].

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعملِ مَنْ أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلىٰ شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل منه شيء وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ أي: أحرق الإعصار ثمارها وأباد أشجارها، فأي حال يكون حاله؟

وروىٰ الحاكم في مستدركه[2] أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه: (**اللَّهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقضاء عمري**).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها علىٰ المراد منها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٨).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٤٢).

أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

يأمر تعالىٰ عباده المؤمنين بالإنفاق من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها.

قال عليٌّ والسُدِّي: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ يعني: الذهب والفضة، ومن الثمار والزروع التي أنبتها لهم من الأرض.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ أي: تقصدوا الخبيث ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ أي: لو أُعطِيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنىٰ عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون.

وقيل: معناه ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ أي: لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلىٰ الحرام فتجعلوا نفقتكم منه.

والصحيح القول الأول.

وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: وإنْ أَمَرَكم بالصدقات وبالطيب منها، فهو غني عنها، كقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جواد، ويجزيه بها، ويضاعفها له أضعافًا كثيرة، وهو الحميد؛ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

معنىٰ ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ أي: يخوِّفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلَّاق، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ ﴾ أي: في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿وَفَضۡلًا ﴾ أي: في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يعني

المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

وقال مجاهد: يعني بالحكمة: الإصابة في القول.

وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة.

وقال قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل.

قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يُدْخِله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله.

والصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعمُّ منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخصُّ، ولكنْ لأتباع الأنبياء حظٌّ من الخير علىٰ سبيل التبع، كما جاء في بعض الأحاديث: (**من حفظ القرآن فقد أُدْرِجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحىٰ إليه**)[1].

ورویٰ البخاري ومسلم[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىٰ**

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

هَلَكَتِهِ في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويُعلِّمها).

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لبٌّ وعقل، يعي به الخطاب ومعنىٰ الكلام.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

يخبر تعالىٰ بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمَّن ذلك مجازاته علىٰ ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده، وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره، فقال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ أي: إن أظهرتموها فنعم شيء هي.

وقوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه دلالة علىٰ أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب علىٰ الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل

من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ : **(الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة)**[1].

والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين[2] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ : **(سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظلَّ إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتىٰ يرجع إليه ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)**.

وفي الحديث المروي[3]: **(صدقة السر تطفئ غضب الربِّ عزَّ وجل)**.

وعن عامر الشعبي في قوله: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال: أُنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالىٰ عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ: **ما خلَّفتَ وراءك لأهلك يا**

(١) أخرجه أبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩)، والنسائي (٣/ ١٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٠٨).

عمر؟ قال: خلَّفتُ لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه، حتىٰ دفعه إلىٰ النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **ما خلَّفتَ وراءك لأهلك يا أبا بكر؟** فقال: عِدَةُ الله وعِدَةُ رسوله، فبكىٰ عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأُمي يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلىٰ باب خير قط إلا كنتَ سابقـًا.

وهذا الحديث روي من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه، وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: بَدَل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفِّر عنكم السيئات.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا يخفىٰ عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ

﴿ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾

روىٰ ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يُتصدَّق إلا علىٰ أهل الإسلام، حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ إلىٰ آخرها، فأمر بالصدقة بعدها علىٰ كل من سألك من كل دين.

وسيأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية، حديثُ أسماء بنت الصديق في ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة.

قال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيتَ لوجه الله فلا عليك ما كان عمله. وهذا معنىٰ حسن وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره علىٰ الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: بَرّ أو فاجر، مستحق أو غيره، وهو مثاب علىٰ قصده، ومستند هذا تمامُ الآية ﴿وَمَا

﴿تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ والحديثُ المخرَّجُ في الصحيحين[1] عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: لأتصدقنّ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق علىٰ زانية، فقال: اللَّهم لك الحمد علىٰ زانية، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة علىٰ غني، قال: اللَّهم لك الحمد علىٰ غني، لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة علىٰ سارق، فقال: اللَّهم لك الحمد علىٰ زانية وعلىٰ غني وعلىٰ سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعفَّ بها عن زنا، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعفّ بها عن سرقته**».

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلىٰ الله وإلىٰ رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به علىٰ أنفسهم ما يغنيهم و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: سفراً للتسبب في طلب المعاش، والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ وقال تعالىٰ: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي

(١) أخرجه البخاري (١٤٢١)، ومسلم (١٠٢٢).

سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية.

وقوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ أي: يحسبهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي هذا المعنىٰ الحديث المتفق علىٰ صحته[1] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللّقمة واللّقمتان: والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنًىٰ يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا**».

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ وفي الحديث الذي في السُنَن: (**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**) ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يُلِحُّون في المسألة ويُكَلِّفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن سأل وله ما يغنيه عن المسألة، فقد ألحف في المسألة.

وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: لا يخفىٰ عليه شيء منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩).

يكون إليه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدحٌ منه تعالىٰ للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، وجميع الأحوال من سر وجهر، حتىٰ أن النفقة علىٰ الأهل تدخل في ذلك أيضًا، كما ثبت في الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتىٰ ما تجعل في في امرأتك**).

وعن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إن المسلم إذا أنفق علىٰ أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة**» أخرجه البخاري ومسلم[2].

وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: يوم القيامة علىٰ ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥)، ومسلم (١٠٠٢).

﴿فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

لما ذكر تعالىٰ الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات، شَرَعَ في ذِكْر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها، إلىٰ بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه، وتخبُّط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: آكل الربا يُبْعث يوم القيامة مجنونـاً يُخْنق.

وقد روىٰ البخاري[1]، عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث المنام الطويل أن النبي ﷺ قال: **(فأتينا علىٰ نهر أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا علىٰ شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح، ثم يأتي الذي قد جمع الحجارة عنده، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً)** وذكر في تفسيره أنه آكل الربا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: إنما جُوْزوا بذلك لاعتراضهم علىٰ أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا علىٰ البيع، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: هو نظيره، فلم حُرِّم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم علىٰ الشرع، أي: هذا مثل هذا، وقد أحلَّ هذا وحرم هذا، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام الله ردّاً عليهم، أي: علىٰ ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، ولهذا قال: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهىٰ حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: (عفا الله عما سلف) وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: (وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين، وأول رِبا أضع: رِبا العباس) ولم يأمرهم بردِّ الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

ثم قال تعالىٰ: (وَمَنْ عَادَ) أي: ومن عاد إلىٰ الربا ففعله بعد بلوغه نَهْيُ الله عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحُجَّة، ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وروىٰ ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **(الربا ثلاثة وسبعون بابًا)**. ورواه الحاكم في مستدركه[1] وزاد: **(أيسرها أن ينكح الرجل أمه، وإن أربىٰ الربا عرض الرجل المسلم)** وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروىٰ الإمام أحمد[2] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(يأتي علىٰ الناس زمان يأكلون فيه الربا، قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: من لم يأكله منهم ناله من غباره)**.

وباب الربا من أشكل الأبواب علىٰ كثير من أهل العلم، والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه حرام مثله، لأن ما أفضىٰ إلىٰ الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلىٰ المحرمات، وقد صنَّف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتابًا في إبطال التحليل، تضمن

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٩٤).

النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلىٰ كل باطل، وقد كفىٰ في ذلك، وشفىٰ، فرحمه الله، ورضي عنه.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

يخبر الله تعالىٰ أنه يمحق الربا، أي يُذهبه، إما بأن يُذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يَحْرِمه بركة ماله فلا ينتفع به، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِنْدَ اللهِ﴾ وقال ابن جرير في قوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾: وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الربا وإن كَثُر فإن عاقبته تصير إلىٰ قُلّ.

وقوله: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ قُرِئ بضم الياء والتخفيف، من ربا الشيء يربو وأرباه يُرْبيه، أي كثَّره ونمَّاه ينمِّيه، وقُرِئ: يُربِّي بالضم والتشديد من التربية.

كما روىٰ البخاري ومسلم[1] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يُربي أحدكم فلوه، حتىٰ يكون مثل الجبل**».

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ أي: لا يُحِبُّ كفور القلب أثيم القول والفعل.

ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضىٰ بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعىٰ في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل.

ثم قال تعالىٰ مادحًا للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلىٰ خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

يقول تعالىٰ آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهيـًا لهم عما يقربهم إلىٰ سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي: اتركوا ما لكم علىٰ الناس من الزيادة علىٰ رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر علىٰ تعاطى الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ﴾ أي: استيقنوا بحرب من الله ورسوله.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمن كان مقيمـًا علىٰ الربا لا ينزع عنه، كان حقـًا علىٰ إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نَزَعَ وإلا ضَرَبَ عنقه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: بوضع رؤوس الأموال أيضـًا، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أمر تعالىٰ بالصبر علىٰ المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلَّ عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي.

ثم يَنْدُبُ إلىٰ الوضع عنه، ويَعِدُ علىٰ ذلك الخير والثواب الجزيل.

وعن أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(من سَّره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فلييسر علىٰ معسر أو ليضع عنه)**[1].

وعن محمد بن كعب القُرظي، أن أبا قتادة كان له دين علىٰ رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أُخبرت أنك هاهنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر وليس عندي شيء، قال: آلله أنك معسر؟ قال: نعم، فبكىٰ أبو قتادة، ثم

---

(١) أخرجه الطبراني (١/ ٣٠٤) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(من نفَّس عن غريمه، أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيامة)** رواه مسلم في صحيحه[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(أتىٰ الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها -قالها ثلاث مرات- قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أبايع الناس، وكان من خُلُقي الجواز، فكنت أُيسِّر علىٰ الموسر وأُنْظِر المعسر، قال: فيقول الله عزّ وجل: أنا أحق من ييسر، ادخل الجنة)** أخرجه البخاري ومسلم[2].

وأخرج مسلم في صحيحه عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمامة من صحف، وعلىٰ أبي اليسر بُردة ومعافري، وعلىٰ غلامة بُردة ومعافري، فقال له أبي: يا عمِّ، إني أرىٰ في وجهك سفعة من غضب، قال: أجل كان لي علىٰ فلان بن فلان مال، فأتيتُ أهله، فسلمتُ فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج عليّ ابن له جفر، فقلت: أين أبوك؟ فقال: سمع

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥١)، ومسلم (٢٤٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥٥).

صوتك فدخل أريكة أُمي، فقلت: اخرج إليَّ، فقد علمت أين أنت، فخرج، فقلت: ما حملك علىٰ أن اختبأت مني؟ قال: أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك، وكنتَ صاحب رسول الله، وكنتُ والله معسراً. قلت: آلله؟ قال: الله، قال: فأتىٰ بصحيفته فمحاها بيده، ثم قال: فإن وجدتَ قضاء فاقضني وإلا فأنت في حلٍّ، فأشهدُ، بَصُرَ عيناي هاتان -ووضع أصبعيه علىٰ عينيه- ووعاه قلبي -وأشار إلىٰ نياط قلبه- رسول الله ﷺ وهو يقول: **(من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله في ظله..)** وذكر تمام الحديث[1].

ثم قال تعالىٰ يعظ عباده، ويُذكِّرهم زوال الدنيا، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالىٰ، ومحاسبته تعالىٰ خلقه علىٰ ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذِّرهم عقوبته، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فعن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. رواه

(١) أخرجه مسلم (٣٠١٤).

ابن أبي حاتم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم.

فقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ أمرٌ منه تعالىٰ بالكتابة للتوثقة والحفظ.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق ولا يجر في كتابته علىٰ أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سُئل أن يكتب للناس، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق علىٰ غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: (**إن من الصدقة أن تعين صانعـاً أو تصنع لأخرق**)[1] وفي الحديث الآخر: (**من كتم علمـاً يعلمه أُلْجِم يوم القيامة بلجام من نار**)[2]، وقال مجاهد وعطاء: واجبٌ علىٰ الكاتب أن يكتب.

وقوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: وليُمْلِل المدين علىٰ الكاتب ما في ذمته من الدَين وليتق الله في ذلك ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يكتم منه شيئـاً.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه: ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي: صغيراً أو مجنونـاً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ إما لِعِيٍّ أو جهلٍ بموضع صواب ذلك من خطئه ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤) نحوه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩).

وقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أمرٌ بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال، وما يُقصد به المال.

وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد، وبهذا قرأ آخرون فَتُذَكِّرَ بالتشديد من التذكار.

ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر، فقد أبعد. والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ قيل: معناه إذا دُعوا للتحمُّل فعليهم الإجابة، وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ولا تسأموا أي لا تملُّوا أن تكتبوا الحق علىٰ أي حال كان من القلة والكثرة إلىٰ أجله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ أي:

هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي أعدل ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالبًا ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ وأقرب إلىٰ عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلىٰ الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: إذا كان البيع بالحاضر يداً بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها، فأما الإشهاد علىٰ البيع، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾.

وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾.

وهذا الأمر محمول عند الجمهور علىٰ الإرشاد والندب لا علىٰ الوجوب، ولكنَّ الاحتياط هو الإشهاد.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ قيل: معناه لا يضارّ الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يُملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه لا يُضَرَّ بهما.

وقوله: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ أي: إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسقٌ كائنٌ بكم، أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكُّون عنه.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ كقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ وكقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أي: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفىٰ عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات.

﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨٣﴾﴾

يقول تعالىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ أي: مسافرين وتداينتم إلىٰ أجل مسمىٰ ﴿وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً ﴿فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞ﴾ أي: فليكن بدل الكتابة

رهان مقبوضة؛ أي في يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقۡبُوضَةٌ﴾ علىٰ أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدلَّ بها آخرون علىٰ أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضًا في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة، وتقرير هذه المسائل في كتاب الأحكام الكبير، ولله الحمد والمنة، وبه المستعان.

وقوله: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ روىٰ ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها.

وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضًا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا.

وقوله: ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ يعني: المؤتمن، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السُنَن عن الحسن عن سَمُرة أن رسول الله ﷺ قال: **(علىٰ اليد ما أخذت حتىٰ تؤديه)**.

وقوله: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك.

﴿ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ قال السُدِّي: يعني فاجر قلبه، وهذه كقوله تعالىٰ: ﴿وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ﴾.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾

يخبر تعالىٰ أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع علىٰ ما فيهن، لا تخفىٰ عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده علىٰ ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً.

وقد أخبر في هذه الآية بمزيد علىٰ العلم وهو المحاسبة علىٰ ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك علىٰ الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا منها ومن محاسبة لله لهم علىٰ جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: لما نزلت علىٰ رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ اشتد ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا علىٰ

الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ : **(أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير)**. فلما أقرَّ بها القوم وذَلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ إلىٰ آخرها. رواه مسلم[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله ﷺ : قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا فألقىٰ الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

(١) أخرجه مسلم (١٢٥).

رواه أحمد[1].

ورواه مسلم[2] وزاد: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: قد فعلت.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)** متفق عليه[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: **(ذاك صريح الإيمان)** هذا لفظ مسلم[4].

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧).

(٤) أخرجه مسلم (١٣٣).

﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

ذِكْرُ الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، قال: **(من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)** أخرجه الجماعة[1].

وعنه قال: لما أُسري برسول الله ﷺ انتهىٰ به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وهي في السماء السابعة.. قال: وأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثـًا: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أُمته شيئـًا المقحمات. رواه مسلم[2].

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضـًا فوقه، فرفع جبريل بصره إلىٰ السماء، فقال: هذا باب قد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٠٨)، ومسلم (٨٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣).

فُتح من السماء، ما فُتح قط. قال: فنزل منه ملك فأتىٰ النبيَّ ﷺ، فقال له: أبشر بنورين قد أُوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفًا منهما إلا أُوتيته. رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه.

فقوله تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ إخبارٌ عن النبي ﷺ بذلك. وقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ عطفٌ علىٰ الرسول.

ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، ويصدِّقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء علىٰ عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارّون راشدون مهديون هادون إلىٰ سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتىٰ نُسِخَ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة علىٰ شريعته، ولا تزال طائفة من أمته علىٰ الحق ظاهرين، وقوله: **(وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)** أي: سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ سؤالٌ للمغفرة والرحمة واللطف.

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: إليك المرجع والمآب يوم الحساب.

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالىٰ بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما كسبت من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي: ما اكتسبت من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف.

ثم قال تعالىٰ مرشداً عباده إلىٰ سؤاله، وقد تكفّل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلَّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ أي: إن تركنا فرضًا علىٰ جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي أخطأنا الصواب في العمل جهلاً مِنَّا بوجهه الشرعي.

وقد تقدم في صحيح مسلم[1] من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: قال الله: نعم. وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال الله: قد فعلت.

(١) أخرجه مسلم (١٩٩).

وروىٰ ابن ماجه[1] في سننه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ : (**إن الله وضع عن أُمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه**).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلِّفنا من الأعمال الشاقة -وإن أطقناها- كما شرعته للأُمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح، وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**بُعِثْتُ بالحنيفية السمحة**)[2].

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تَبْتَلِنا بما لا قِبَلَ لنا به.

وقوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم علىٰ مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: فيما يُستقبل فلا توقعنا في ذنب آخر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وقال البوصيري: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع، وصححه الألباني في الإرواء (٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٣) من حديث عائشة، وله طرقٌ ترفعه إلىٰ درجة الحُسن.

ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلىٰ ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

وقوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك، ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة.

وقد تقدم في الحديث أن الله تعالىٰ قال: قد فعلت.

قال ابن جرير: حدثني مثنىٰ بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبي إسحاق أن معاذاً رضي الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة وقال ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال: آمين.

***

هذا آخر تفسير سورة البقرة، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تم بحمد الله


إتْحَافُ البَرَرَة
باختصار تفسير
سُورَةُ الْبَقَرَةِ
تَفْسِيْرٌ مُحرَّرٌ مُتَكَامِل
لإرسال الملحوظات والاقتراحات
00966505490525
Almohanna.m@gmail.com
@almohannam